المناضل المنسي
وقصصٌ أخرى

الكاتب: **بوفاتح سبقاق**
عنوان الكتاب: **المناضل المنسي وقصص أخرى**

منشورات الحبر، الجزائر
الإيميل: hibredition@gmail.com

الطبعة الأولى: **2025**
ر.د.م.ك: **978-9931-774-69-3**
الإيداع القانوني: **أكتوبر 2025**

جميع الحقوق محفوظة©. لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

قصص

بوفاتح سبقاق

المناضل المنسي
وقصصٌ أخرى

Hibr
لحبر

إهداء

إلى روح أخي الطاهر سبقاق
الذي غادرنا مبكرًا.

المنزل رقم 626

لا تتردد في فعل الخير، هذه المقولة التي طالما اقتنع بها...

بكل بساطة، لا بد من التخلي عن المصلحة الشخصية من أجل مساعدة الآخرين.

دخل السوق وقام بشراء كمية من المواد الغذائية، والآن سوف يتوجه إلى الحي الشعبي الذي يقع في وسط المدينة بمحاذاة محطة نقل المسافرين.

بعد دقائق، وجد نفسه في مدخل الحي العريق. في خريف العمر، يعتبر أن المشي رياضة غير مكلفة ومفيدة للجسم.

امرأة فقيرة ظهرت على هاتفه النقال هذا الصباح تشكو ضيق الحال وتطلب مساعدة أهل الخير... تأثر كثيرًا بكلماتها وقرر مساعدتها، فعلاً مع غلاء المعيشة أصبحت الحياة صعبة على الجميع.

البيت المجاور للمخبزة الوحيدة في الحي، لون بابه أزرق ومكتوب عليه رقم (626). يعني بهذه التفاصيل لن يجد صعوبة في العثور على منزلها.

بعد دقائق، وقف أمام الباب بطريقة استعراضية فيها الكثير من الشهامة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. إنه زمن الرداءة والأنانية، وبموقفه هذا سيكون استثناءً كبيرًا في هذه المدينة الجاحدة.

فجأة، فُتح الباب وظهرت فتاة في مقتبل العمر، تبدو في غاية الجمال. وجودها لا يتماشى مع الإعلان الذي أثار انتباهه.

- هل هذا منزل السيدة كريمة؟

- نعم، نعم... تفضل سيدي.

دخل بكل انبهار ودهشة، قاعة استقبال فاخرة. يبدو أنه أخطأ في العنوان، فلا مظاهر للفقر في هذا المكان.

جلس يحتضن كيس المواد الغذائية الذي بدا أكثر خجلاً منه. إنه منزل غريب وسيعرف ما يحدث قريبًا.

عادت تلك الفتاة الجميلة التي فتحت له الباب منذ لحظات، وأخبرته بأن السيدة كريمة ستأتي. وفجأة دخلت امرأة فاتنة جلست أمامه بطريقة تحمل في طياتها طوفانًا من الإغراء.

نهض بكل نرفزة صارخًا محاولاً الخروج:

- ماذا يحدث هنا؟ أين السيدة كريمة؟

بعد لحظات من الترقب والانتظار، وصلت المرأة التي استطاعت أن تجعله يبتلع الطعم ويدخل إلى المنزل المشبوه.

- لا تشغل بالك عزيزي، أنت ضيفنا الغالي...

جلس بكل استغراب وقلق، ينظر إلى الحسناوات بدهشة. وفجأة خرج من الغرفة المجاورة رجل طويل أعرج يرتدي بدلة مزركشة.

- لم تخبروني بوصوله! أهلاً بك... البيت بيتك.

لقد تخيل في حياته كل السيناريوهات المظلمة والحزينة، ولكن أن يجد نفسه في مكان مقرف يتعارض مع مساره الاجتماعي والوظيفي، فهذا ما لم يخطر على باله إطلاقًا.

اقترب منه الرجل أكثر وبلهجة الواثق من نفسه قال:

- لا تخف، إنها البداية فقط. لن تندم على زيارتك لهذا البيت «الرومانسي». ضاع عمرك في الوظيفة وأعباء الأسرة، آن الأوان لترتاح قليلاً وتتذوق متعة الحياة.

حاولت فتاة الاقتراب منه وملاطفته، لكنه استطاع أن يفلت منها وينتقل إلى الجانب الآخر. إنه آخر الرجال المحترمين في زمن الرداءة الشاملة.

وفجأة، تغيرت الأوضاع وعمت الفوضى. رجال الشرطة يدخلون المكان، إنها حملة لمكافحة الانحراف الأخلاقي بالحي. كانت سعادته لا توصف، وأخيرًا سوف يغادر هذا الكابوس المزعج.

وأخيرًا سقطت كريمة! أنتِ لستِ جديرة بهذا الاسم. جميل أن يتم إيقافكم جميعًا في حالة تلبس.

- إنهم ضيوف عندي، وليس من حقكم دخول منزلي. وهل لديكم إذن بالتفتيش؟

- طبعًا، تفضلي أيتها السيدة الفاضلة.

تأثرت كثيرًا بهذه اللفتة السيئة، وهي تدرك أن المسافة بينها وبين الفضيلة... سنوات ضوئية.

تحولت قاعة الضيوف إلى تجمع بشري غير متناسق، حيث تم اقتياد وجوه أخرى من مختلف الغرف. فعلاً إنها لوحة رجالية-نسائية تكعيبية غير واضحة المعالم: الطويل، القصير، السمين، الجميلة، القبيحة... فعلاً من أبدع هذا المشهد بأنامله «الرومانسية» هو الرغبة والمتعة التي

تسكن الجميع. كل من وطأت أقدامه المكان فقد عقله وترك رغبته تقوده إلى هذا المنزل المشبوه.

الوحيد الذي يبدو أنه خارج اللوحة هو صاحبنا، الذي جاء ليساعد امرأة قست عليها الأيام، لكنه وجد نفسه في قفص الاتهام.

اقترب منه الضابط بكل اندهاش وسأله:

- ماذا تفعل هنا أيها الرجل الطيب؟ أنت الوحيد الذي لم أقتنع بوجوده هنا...

صدقت، ابني. فعلاً ليس لي علاقة بهم. جئت من أجل تقديم المساعدة لامرأة فقيرة، ولكن يبدو أنني أخطأت في العنوان.

لكن في نفس اللحظة اقترب منه ضابط آخر بدا أكثر حدة وأقل لطفًا، يشبه الضباط الذين لا يملكون أي شفقة في الأفلام المصرية:

لا تفرح كثيرًا أيها العجوز المنحرف، مهمتنا ليست إنقاذك من هنا. عملنا يقتضي تحويل كل من هو موجود في هذا البيت المشبوه للتحقيق مع الجهات المختصة.

اختفت بارقة الأمل الوحيدة التي ظهرت، لكنه وقف من جديد شامخًا من أجل إثبات براءته:

- سيدي، ذنبي الوحيد أنني جئت إلى المكان الخطأ... في الزمن الخطأ. هل هذا جزاء من يفعل الخير؟

- عن أي خير تتحدث؟ من يأتون هنا يفعلون الشر فقط. مهمتنا الحفاظ على قيم المجتمع التي تدهورت بسبب هذه الأوكار المشبوهة.

بعد ثوانٍ تدخل الضابط الأول من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه:

- في الحقيقة، أنت في حالة تلبس واضحة، ولكن يمكنك إثبات نواياك للجهات المختصة لاحقًا.

تم اقتياد الجميع في لمح البصر: نساء شبه عاريات، منظر بدا مقبولًا، في حين رجال مهمون جدًا بقطع ثياب بسيطة، ما أضاف للمشهد سخرية صادمة، خصوصًا حين مشى البعض منهم بطريقة متكبرة وكأنه بالبدلة الرسمية أو فوق البساط الأحمر.

- ستدفعون الثمن غاليًا، إنكم تنتهكون حرمة البيوت الشريفة... قال آخر «الرجال غير المحترمين» وهو يساق إلى الخارج.

- عن أي حرمة يا رجل تتحدث؟ نحن نقوم بعملنا فقط...

السيدة كريمة، قائدة الجوق الرومانسي، بدت غير متأثرة بما حدث. تدرك أن أي نشاط فيه مخاطر، وتفكر في كيفية الخروج من المأزق بأقل الأضرار.

عند مدخل البيت رقم (626)، تجمع الكثير من الفضوليين من أجل مشاهدة موكب من نوع خاص: رجال ونساء يسارعون الخطى لركوب سيارات الشرطة والهروب من العيون المتشوقة لمعرفة خبايا الحدث الذي ميّز حيًّا شعبيًا مغمورًا.

كان الرجل الطيب يمشي مع الموكب بكل قلق، ممسكًا بكيس المواد الغذائية بكل حرص، باعتباره دليل براءته الوحيد حسب ما يظن. فعلاً، الرجل أثار انتباه الجماهير.

ولما أخذ مكانه بمحاذاة نافذة السيارة، اقتربت منه عجوز كانت في الجوار تشاهد الأحداث بكل تركيز. نظرت إليه بكل حقد:

- عيب عليك أيها العجوز! أمثالك يزورون الأماكن المقدسة، وأنت تلهو في هذا البيت سيئ السمعة.

للوهلة الأولى أراد أن يدافع عن نفسه ويوضح كل النقاط الغامضة لها، لكنه تراجع عن الأمر. بقي صامتًا ممسكًا بكيس المواد الغذائية، سيدّخر قدراته في الإقناع وإثبات براءته للجهات المختصة.

سفير تحت العادة

أفنى سنوات عمره في سفارات مغمورة لا يسمع بها أحد. في البداية لم يجد أي مشكل في الالتحاق بالسفارات الإفريقية، وكان يعتقد أنّه مسار إجباري للحصول على سفارات أفضل لاحقًا.

لكنّه بقي يتنقّل من عاصمة مغمورة إلى عاصمة مجهولة، حتى خُيّل له أنّ أصحاب القرار قد اعتبروه سفيرًا متواضعًا ومختصًا في تمثيل البلد لدى الدول المجهرية، حيث لا وجود للجالية ولا وجود لمصالح مشتركة، حتى السفر إلى تلك البلدان يكون عبر خطوط جوية غير مباشرة. فعلا، تلك السنوات كانت سفرًا عبر الزمن الخاطئ وضياعًا في الأمكنة المهمشة.

دخل مبنى الوزارة. لقد مضت أشهر على عودته إلى البلد، لكن يبدو أنّ الوزير لا يكترث بوضعه الحالي، ولم يعد في جدول الاهتمامات، خاصة أنّ البلاد مقبلة على انتخابات رئاسية حاسمة جعلت الشأن الخارجي بعيدًا عن أولويات أصحاب القرار.

جلس في مكتبه يقرأ عناوين الصحف اليومية. بلد يعاني من أزمات عديدة. ومن كثرة أسفاره وعدم مكوثه في البلد لفترة طويلة، لم يعد يفهم ما يقع: حكومة تعمل بكل إمكانياتها لترقية حياة المواطنين، في حين أنّ المعاناة والشكاوى تتهاطل يوميًا على الجرائد، بل أصبحت منشورات حتى عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

توجّه إلى مكتب في الطابق الرابع، ودخل في انتظار مفاجأة اليوم.

- مرحبًا، صباح النور. تفضّل السيد منصف.

- أهلا بك. يبدو أنّ هناك أخبارًا جديدة.

- نعم، وأخيرًا لقد تم اقتراحك كسفير في جمهورية الدومينيكان. أعرف أنّك كنت دومًا تريد الخروج من قارة إفريقيا. كما تعلم، الهدف هو ترقية العلاقات الثنائية مع هذا البلد الصغير، ورعاية مصالح الجالية. إنه قرار سياسي لضمان موطئ قدم في تلك المنطقة الحساسة من العالم.

عاد إلى مكتبه يجرّ أذيال الخيبة. الدومينيكان! فعلا هو بلد جدير بكل احترام وتقدير، لكن هل هي هدية نهاية الخدمة؟ يعرف كواليس الوزارة: لا مكان لأصحاب النوايا الحسنة. بدا أنّ طلب الخروج إلى التقاعد أفضل بكثير من قبول هذا الاقتراح الذي قضى على كل أحلامه في خريف العمر.

بعد أيام من التفكير والتشاور مع نفسه، استعدّ للرحلة الدبلوماسية. ليس له أي خيار آخر، ومن أجل مستقبل أفضل لأبنائه لابدّ من مزيد من التضحيات.

سيكون السفر عبر رحلة عادية، برفقة الملحق التجاري للسفارة، والمرور عبر باريس؛ المفترق الإجباري الذي يعرفه كل السلك الدبلوماسي.

في انتظار الرحلة الثانية جلس يرتشف كوبًا من الشاي رفقة الملحق التجاري. لم يكن يدري أي تبادل تجاري مع هذه الدولة! بدا أنّه قرار يدخل في إطار التقاليد الدبلوماسية لا غير.

- في الحقيقة، لم أكن أنوي الحديث معك حول الموضوع، لكن بحكم صداقتنا القديمة، أجد نفسي مضطرًا لإخبارك بما يقع في كواليس الوزارة... قال الملحق التجاري.

- تفضّل، احكِ. أنا في الاستماع.

- إلى آخر لحظة كان القرار هو تعيينك سفيرًا في عاصمة الضباب، لندن. لكن تدخلت أطراف لفائدة سفير آخر، وتم دحرجتك إلى الدومينيكان.

تغيّرت ملامح وجهه، لم يصدق الخبر. فعلا يبدو أنّ الرداءة أصبحت تسود كل القطاعات. لكنه استطاع أن يستعيد هدوءه. قد يكون محدثه يرمي بالون اختبار لا غير، أو مكلّفًا بمهمة خاصة معه.

- لا يهمني الأمر. أنا في خدمة بلدي في أي موقع. ربما هناك من هو أجدر مني. على كل حال، لا أحد يدوم في أي سفارة.

نهض من مكانه يتجول في منطقة العبور. السنوات الطويلة التي قضاها معهم لم تشفع له. بدا أنّ هناك خفايا كثيرة لا يعرفها.

وجد نفسه بلا إدراك يتجول في المطار بين المسافرين. لم يعد للقبعة الدبلوماسية أي تأثير. لا يصدق أنّهم تخلوا عنه بعد كل هذه السنوات. هل السفارات الكبيرة والمهمة حكر على أحبابهم وأصحابهم؟ أسئلة كثيرة تتهاطل في ذهنه. النكسة التي يعيشها لا تختلف كثيرًا عن الصدمة التي يجدها العاطلون عن العمل. خيبة الأمل هي نفسها.

الهجرة السرية عبر قوارب الموت أصبحت حدثًا متكررًا ومألوفًا: يصل البعض ويموت البعض الآخر. في الحقيقة كانوا يعيشون على هامش الحياة. الموت لا يخيفهم بتاتًا، لأنهم سئموا الموت بالتقسيط.

مغامرة عبور البحر تحمل في طياتها الكثير من الطموحات المشروعة. الوصول إلى الضفة الأخرى هو إعلان حياة جديدة. قد تكون البداية صعبة، لكن بقليل من الصبر سوف يتغير واقعهم إلى الأفضل.

اعتبر نفسه في وضع أفضل. لم يركب أي قارب موت، والآن عليه أن يحدد مصيره. لن يعود إليهم. قد يكون قرارًا مجنونًا من دبلوماسي مرموق، لكن اللعبة انتهت. لم تعد تهمه دولة الدومينيكان أو غيرها. حقيبته معه، وكل وثائقه بحوزته. سوف يعتبر نفسه مهاجرًا غير شرعي جديدًا في بلد الجن والملائكة.

غادر المطار بسرعة، وأغلق هاتفه النقال. ابتعاد مؤقت عن عالمهم وأكاذيبهم. إنه منعطف تاريخي كبير في حياته. وأخيرًا سوف يتحقق حلمه الكبير: الإقامة في بلد أوروبي كبير بعيدًا عن مآسي ومهازل العالم الثالث.

في تلك الأمسية جلس في منزل صديقه بضواحي باريس، يحاول تجميع ما حدث معه في هذا اليوم الغريب.

- غادرت المنصب بدون إشعارهم بالأمر...

- انتهى كل شيء. إنها نهاية دبلوماسي شجاع. سنوات من العمل والدوران عبر الكثير من دول العالم، بدون أي نتيجة. يمارسون البيروقراطية والمحسوبية على الصعيد الدولي.

- ولكن، بكل صراحة، وأرجو أن تتقبل ما أقوله لك: أنت لست موظفًا عاديًا. أنت إطار سامٍ، سفير فوق العادة. لا يمكنك الانسحاب من هذا المنصب بهذه الطريقة.

- لن أغفر لهم ما فعلوه معي. سوف أطلب اللجوء السياسي في هذا البلد، وأرتاح نهائيًا من تعسفهم واحتقارهم لي.

حانت ساعة النوم. كان بحاجة إلى الكثير من الراحة بعد هذا الهروب الكبير من المطار. في الغد سوف يبدأ كل الإجراءات التي ستسمح له بالعيش في سلام، في العاصمة التي طالما حلم بالإقامة فيها. مهما كانت الظروف، لن يعود، وسوف يقوم لاحقًا بترحيل عائلته. ومهما كانت الصعوبات التي سيعيشها، فإنه في أفضل حال من الذين غادروا البلاد في قوارب الموت.

في الصباح الموالي، استطلع بعض الأخبار على المواقع الإعلامية الوطنية. عنوان واحد أثار انتباهه:

اختفاء دبلوماسي في ظروف غامضة...

عائد إلى الديار

أعلنت المضيفة بداية هبوط الطائرة، وأخيرًا يعود إلى الديار بعد غياب سنوات، إلى المدينة التي عاش فيها طفولته وشبابه، إلى باقي الوطن حيث العزلة والبعد عن المركز.

ركب أول سيارة أجرة وجدها عند مدخل المطار. على جانبي الطريق بدت غابات النخيل وقد فقدت رونقها، وأضحت مجرد ديكور طبيعي مهمل. لقد فقدت المنطقة الكثير من جمالها الطبيعي، وزحفت البناءات على كل الأمكنة.

نزل في وسط المدينة؛ فالبيت ليس بعيدًا، وكان يريد أن يسترجع بعض ذكرياته. مبانٍ كثيرة ظهرت هنا وهناك، وبعض الشوارع القديمة ما زالت صامدة. يتأمل الجميع ويدرك أنه لن يعرف أحدًا؛ إنها أجيال جديدة تعيش هنا، أما معارفه وأصدقاؤه فقد وصلوا إلى مرحلة من العمر لا تسمح لهم بالتسكع والتجوال.

وفيما كان يسارع الخطى نحو بيت الطفولة، وجد تجمعًا كبيرًا وفوضى في مفترق الطرق الرئيسي. الشرطة تحاصر المكان، والمواطنون يحملون الكثير من اللافتات التي تطالب بالسكن وبالتوظيف في الشركات المتواجدة في المنطقة... نفس الانشغالات التي تركها منذ سنوات.

وسط المدينة تحول إلى فضاء ريفي بامتياز، حتى المعالم التاريخية فقدت بريقها، والغبار يعلو كل الوجوه والأماكن، وطاولات بيع الشاي

منتشرة في كل زاوية منه. تحولت المنطقة إلى مجرد نقطة عبور مهمشة. وتعجب أن مدن الوطن كلها تغيرت معالمها إلى الأفضل... إلا مدينته التي بقيت خارج السباق.

وفجأة تدخلت قوات مكافحة الشغب من أجل تطويق المكان، بعدما أخذت الوقفة الاحتجاجية أبعادًا أخرى، إذ قام بعض المراهقين برشق السيارات ومحاولة نهب بعض المتاجر. وهكذا بدأت حملة توقيف كبيرة لكل المتواجدين في المكان.

وجد نفسه فجأة وسط المجموعة التي تم توقيفها، ولم يمنحوه أي فرصة ليخبرهم بأنه لم يصل إلى المدينة إلا منذ دقائق. في الحقيقة، تدهور الوضع جعل الكل متهمًا حتى تثبت براءته.

في مركز الشرطة المجاور، جلس في ركن منزوي يتأمل الجميع. شباب من مختلف الأعمار، لا أحد فيهم منزعج، بل كلهم يتحدثون عن واقع المدينة المهمشة. في خريف العمر، وجد نفسه معزولًا وسطهم.

جاء إلى مدينته حاملاً في أعماقه حنينًا وشوقًا إلى مسقط رأسه، وفجأة وجد نفسه موقوفًا بتهمة إثارة الشغب والفوضى.

بعد دقائق دخل القاعة ضابط كبير رفقة مساعديه، خطواته تدل على أنه سعيد بنجاحه في توقيف أعداء الاستقرار ومثيري الشغب.

- هؤلاء سيدي الذين أشعلوا فتيل الفوضى، نعرفهم جميعًا وقد استطعنا توقيفهم قبل تفاقم الوضع أكثر... قال أحدهم.

- وهذا الرجل الكهل الذي يضع بين قدميه حقيبة سوداء، هل هو الأب الروحي لهذه الثورة الفاشلة؟

- في الحقيقة لا نعرفه، ولكن غير مستبعد أن يكون أحد المدبرين الكبار لهذه الفتنة. التحقيقات سوف تجعلنا نكتشف الكثير عن خبايا هذه الانتفاضة غير المتوقعة.

ما أصعب أن يأتيك الظلم والقهر من مدينة عشقتها وأنت في الغربة! لم يكن يتصور أنه سيتم استقباله باستجواب لدى مصالح الشرطة. كان ينتظر أن يُستقبل بالورود، وهو الذي غادر المنطقة منذ سنوات طويلة... من الغربة في الخارج إلى الاغتراب في الداخل.

- إذن أنت الزعيم أو الأب الروحي لهذه الانتفاضة غير المباركة؟ سأله الضابط وهو يتأمله بنظرات من الشك والريبة.

- لا أبدًا، ليست لي أي علاقة بما يحدث. وقفت لأسترجع أنفاسي في وسط المدينة فتم تحويلي عندكم. لا أدري أي جرم ارتكبته...

- كفاك مراوغة أيها الكهل، كل المعطيات الأولية تشير إلى أنك الرجل الحكيم والمرشد لهؤلاء المغرَّر بهم.

- ربما تواجدت في المكان الخطأ وفي الزمن الخطأ، ولكن ليس لي أي علاقة بما يحدث عندكم. لقد وصلت منذ ساعة عن طريق رحلة جوية عبر المطار، ويمكنك أن تطلع على ما يثبت كلامي... وأعطاه تذكرة السفر وبطاقة الهوية.

كان الضابط يتأكد من الوثائق التي بين يديه، حتى دخل ضابط آخر إلى المكتب واقترب أكثر من الكهل، وتفحصه بكل ثقة:

- أهلاً جارنا العزيز، مرحبًا بك... يبدو أنك لا تتذكرني، أنا ابن الحاج عمر صديقك.

بقي الرجل مندهشًا أمام هذا الوافد الجديد، ويبدو أن الخلاص قريب من هذه الورطة الكبيرة. لكن الضابط الأول تدخل مستغربًا وسأل زميله:

- هل يمكنك أن تشرح لي ما يحدث؟

- نعم، إنه جارنا، صديق والدي، يعيش خارج البلاد، إنه باحث مشهور يعرفه العالم كله... وقطعًا ليس له أي علاقة بما وقع في مدينتنا اليوم.

- أعتذر منك سيدي الفاضل، لقد أخطأنا في حقك. يمكنك المغادرة، ومرحبًا بك في الديار.

لم يصدق ما سمعه، لكنه غادر المكان بابتسامة باهتة، لأنه تخيل الكثير من السيناريوهات المزعجة... من زيارة بعد غياب طويل إلى استقبال قاسٍ على قلبه الذي يحمل الكثير من الحنين والشوق إلى مسقط رأسه.

قاتل الخوف

- لا شيء يقف أمام طموحاتي. دفنتُ مخاوفي وانطلقتُ في الحياة... في قاموسي لا يوجد شيء اسمه الخوف من الأشخاص أو القوانين أو السلطات.

وقعتُ في مواقف لا يمكن للعقل البشري أن يتخيلها، ولم تُعرض في أي فيلم رعب. دخلتُ مستنقعات بشرية وخرجتُ منها سالماً. كنتُ معرّضًا للموت في أي لحظة، لكنني استطعتُ أن أعيش وأنجو. بكل بساطة أصبحتُ كائنًا من نوع خاص لا يتأثر، ويستطيع تحدي كل الظروف والصعاب.

- أنتَ رجل خارق، سيدي. لم يسبق لي أن عملتُ مع زعيم قلبه من حديد. الخوف لا يعرف لك طريقًا. أنت فعلاً، وبدون مجاملة، بطل أسطوري عاد إلى الواقع.

نهض الزعيم من مكانه، واقترب أكثر من شرفة المنزل، ثم استدار نحو الوافد الجديد...

- هذه المدينة التي تبدو هادئة هي ملعب كبير لكل أنواع العصابات والإجرام. هنا تجري بطولة دائمة لا يعرفها أحد. الكل يبحث عن الزعامة في منطقته. لا جمهور، ولا حكّام، ولا نقل لأطوار المقابلات الكبيرة التي تقع. إنها مباريات قاتلة ودموية، تصبح فيها الحياة معادلة للموت. هنا لا بطاقات حمراء ولا صفراء... هنا البقاء للأقوى.

بدا الشاب منبهرًا جدًا بما يقوله الزعيم. كلمات تدل على خبرته الكبيرة في الميدان. لكنه استطاع أن يقاطعه بطريقة ذكية، تُظهر رغبته في الانضمام إلى نادي الأشرار.

- سيدي، أنا رهن إشارتك لأي مهمة جديدة. سأبرهن لك بخبرتي المتواضعة أنني جدير بثقتك.

توجّه الزعيم إلى الجدار المقابل، تأمل لوحة تكعيبية مميزة، ثم نزعها ووضعها على مكتبه. ظهرت خزانة حائطية أنيقة، فتحها بسرعة، وسحب من داخلها طردًا متوسط الحجم.

- تفضّل... إنها عمليتك الأولى معنا. خذه إلى الضاحية الجنوبية للمدينة. ستجد عادل في انتظارك عند مدخل السوق، لديه طاولة صغيرة لبيع الشاي. تسلّمه وتستلم منه طردًا آخر. كلمة السر: ممكن تدلني على أقرب مخبزة؟ ... أي خطأ ستحاسب عليه.

ركب حافلة متهالكة لنقل المسافرين. المكان يعجّ بالبؤساء والموظفين. الطبقة المتوسطة اختفت وأصبح الفقر صديق الجميع. الأسعار ترتفع بطريقة مذهلة وغير قابلة للتفسير. الأخلاق صارت عملة نادرة، وكل مواطن يسحق أخاه المواطن بكل سعادة. الأنانية سيدة المكان. لا مكان للضعفاء في زمن الأموال والمصالح.

لم يكن لديه خيار آخر غير طريق عالم الأقوياء. لا القانون يعنيه ولا المبادئ. وصل أخيرًا إلى المكان الموعود. وقف يتأمل الوضع العام... لا وجود لرجال الشرطة، لكن قد يكونون بزي مدني. لابد من الحيطة والحذر. أي خطأ مباشر هو نهاية الحلم الكبير.

في الجهة المقابلة... البائع المقصود يوزّع أكواب الشاي. مهنة بسيطة لكن ذات مداخيل كبيرة: لا إيجار، ولا ضرائب، ولا كهرباء. عربة متنقلة فقط تفي بالغرض.

اقترب أكثر، وتظاهر بطلب كوب شاي:

- ممكن تدلني على أقرب مخبزة؟

تفاجأ عادل بالوافد الجديد، وأدرك أنه مرسل من طرف «قاتل الخوف»، الاسم المتداول لزعيم العصابة.

- مرحبًا بك... تفضل كوب الشاي، اجلس.

أسرع عادل هامسًا:

- تعرف جيدًا أن كل المنطقة تحت مراقبة الشرطة، ورجال العصابات الأخرى المنافسة لنا. لقد وضعت الطرد بجوارك.

أخفى عادل الطرد بسرعة بين أغراضه، وسلّمه طردًا آخر. لا مجال للتأكد من محتوياته، الثقة الكاملة بين جميع الأطراف.

غادر المكان بسرعة. أوقف سيارة أجرة لتفادي أي مراقبة محتملة. بعد دقائق وصل إلى قصر «قاتل الخوف». توقّف بعيدًا، وتوجه بخطوات متأنية نحو هدفه. نجاحه في هذه المهمة سيجعله موضع ثقته ويكلّفه بمهام جديدة.

لكن بمجرد اقترابه، تفاجأ برجال الشرطة يحاصرون المنطقة. سيارات كثيرة ترصد في كل زوايا الشارع. يبدو أنها حملة توقيف كبيرة. استطاع أن يجد لنفسه مكانًا وسط الفضوليين الذين خرجوا من منازلهم لمعرفة ما يحدث.

كان هجوم رجال الشرطة مفاجئًا، فلم تكن هناك مقاومة تُذكر. تم اقتياد كل أعضاء العصابة، وكان الزعيم آخر من ظهر في حالة يُرثى لها. قاتل الخوف يسقط في لحظات. وأثناء مروره أرسل له نظرات ذات معنى... في طياتها تهديد ووعيد، خاصة أنه لم يستلم الطرد الموعود.

تمكّن من العودة إلى بيته في أعالي المدينة، بالرغم من الحواجز الأمنية التي وُضعت في عدة نقاط. بدا أنها ليلة ذات طابع خاص، حيث تجندت كل المصالح المعنية بمكافحة الجريمة والإتجار بالمخدرات لإيقاف أكبر عدد ممكن من رجال العصابات.

جلس يرتشف كوبًا من الشاي البارد، يحاول إعادة تجميع صورة هذا اليوم الذي وقعت فيه أحداث كبيرة ومفاجئة. الشيء الوحيد الذي حيّره: «قاتل الخوف» لم يتوقع هذه الضربة التي زلزلت عرشه... هل هناك خيانة داخلية؟ لا يمكن للشرطة أن تتحرك بهذه السرعة إن لم يكن هناك تسريب لمعلومات حساسة ومهمة.

تناول هاتفه ليتصفح بعض المواقع الإخبارية. بالفعل، الحدث أصبح حديث الساعة: قاتل الخوف يسقط في هجوم خاطف لمصالح الشرطة.

وضع الطرد أمامه، وبكل ثقة فتحه ليتأكد من محتوياته... رزمة كبيرة من الأوراق النقدية بالعملة الصعبة. إنه الكنز الكبير الذي كان ينتظره الزعيم بشغف.

الآن عليه اتخاذ القرار المناسب. بقاؤه خطر عليه. رجال الزعيم سيبحثون عنه، وحتى لو دخل السجن سيكون بمقدوره إعطاء التعليمات لأعوانه. رجال الشرطة أيضًا سيلاحقونه. وحتى العصابات المنافسة ستضعه ضمن أهدافها الثمينة.

في صبيحة اليوم الموالي، وقف أمام شاطئ معزول، ينتظر مع مجموعة كبيرة من الشباب قارب الهجرة غير الشرعية. إنها الطريقة الوحيدة للهروب. لا يمكنه أن يغادر عبر المطار أو الحدود البرية. الجميع يبحث عن «الفردوس المفقود»، بينما هو يحمل معه ما يسمح له أن يعيش بسلام في الجانب الآخر.

بعد لحظات، ركب الجميع القارب السريع، وفي لمح البصر اختفى عن الأنظار. فعلاً، الهجرة غير الشرعية أصبحت ملاذ الجميع... وأخيرًا سيحقق أحلامه بعيدًا عن المدينة التي لم تعد سوى فضاء دائم للحروب اليومية.

لجنة خاصة

- الأمور تزداد سوءًا، سيدي... التقارير التي تصلنا تختلف عن تلك الوقائع التي نشاهدها يوميًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي. أصبح كل مواطن يملك هاتفًا نقالًا بإمكانه أن يكشف ما يقع على المباشر، وهذا من شأنه أن يمس بمصداقية الدولة.

بعد أيام قليلة، وبناءً على تعليمات حكومية مستعجلة، تنقلت لجنة خاصة إلى عين المكان من أجل المساعدة على إعادة استقرار الأوضاع. إنها منطقة حدودية مجاورة لثلاث دول غير مستقرة، إضافةً إلى الترابط الأسري والتاريخي بين مختلف القبائل، التي لا تخضع أصلًا للحدود السياسية والجغرافية، بل هي مرتبطة بالولاءات وتأثير زعماء العشائر.

- مرحبًا بكم، كنا نترقب زيارتكم منذ سنوات، قال أحدهم.

- زيارتنا مبرمجة منذ مدة طويلة، لكن للأسف تأخرت. تعلم، سيدي، أن بلدنا بحجم قارة، ولا يمكننا تغطية كل مناطق الوطن.

نهض شاب يرتدي الزي التقليدي الصحراوي، كان يجلس في آخر القاعة، واقترب من المنصة التي يترأسها رئيس اللجنة ببدلته العصرية وربطة عنقه الحمراء... بدا صراع أزياء قبل أن يكون عرضًا للمشاكل.

- يبدو أنكم ما زلتم تعيشون في عالم آخر. لقد طفح الكيل... نحن نعيش ولا نعيش. سئمنا الوعود المعسولة، البطالة، الفقر، الأمراض... الشباب هنا فقدوا الأمل، يتعاطون المهلوسات للهروب من واقع قاتل.

وضع رئيس اللجنة نظاراته جانبًا، وتأمل من جديد صاحب المداخلة المميزة والمؤثرة. وبحكم خبرته الطويلة في لجان التهدئة، كان يدرك هذه الحقائق، كما يعرف كيفية استيعاب كل الانشغالات وتخفيف كل أنواع الاحتقان الاجتماعي. يمتلك قدرات رهيبة في الإقناع والتبرير، تسمح له حتى بأن يصبح مبعوثًا أمميًا يُرسَل إلى بؤر التوتر عبر العالم.

- اطمئن، لدينا خريطة طريق واضحة. سوف نجعل المنطقة قطبًا اجتماعيًا، اقتصاديًا وسياحيًا أيضًا. ليست كلمات أو خطابات عابرة، هناك غلاف مالي كبير مرصود لهذه النهضة الشاملة.

نهض الصف الأول يصفق ويهلل. بدا أنهم مجموعة من المواطنين حُدّد لهم هذا الدور مسبقًا. أما في وسط القاعة فسادت حالة من الصمت التام، وكأنهم يعيشون في كوكب آخر.

تم اختتام اللقاء تحت رعاية وحراسة مشددة من طرف فريق حماية خاص. توجه الوفد إلى الفندق حسب برنامج الزيارة المعد سلفًا، من أجل الغداء واستراحة قصيرة. غادرت السيارات الرسمية المكان، لتبقى المدن الداخلية دائمًا فضاءً للاحتجاج. وبينما كانت كل الأجواء تدل على أن هذه الزيارة ستُختتم بكل أريحية، وتعود اللجنة بتقرير شامل عن الأوضاع لتسليمه إلى أصحاب القرار...

فجأة، تعالت سحب الدخان وسط المدينة. مواطنون من مختلف الأعمار يقطعون الطريق، يتجمهرون، يرفعون شعارات ضد التهميش والعزلة. عجلات السيارات المشتعلة وُضعت بطريقة مدروسة ولا يمكن تفاديها. إنه سيناريو لم يكن متوقعًا من أهل هذه المدينة، التي طالما عُرفت بالسكون والهدوء والطيبة والترحيب بالضيوف. لكن يبدو أنه جيل جديد لا يعترف بالسلطات العليا، سئم من الوعود المعسولة،

ولم يعد يقتنع بنشرات الأخبار العمومية... إنهم شباب مواقع التواصل الاجتماعي، يعرفون كل شيء في حينه عبر هواتفهم النقالة. لم تعد هناك أي فرصة لتغيير أو تلميع الواقع، فكل الحقائق متوفرة بالصوت والصورة من كل المصادر.

نزل رئيس اللجنة من السيارة، والتحق به رجال الحماية الخاصة. اقترب أكثر من أول حاجز بشري، حاول الضابط أن يقنعه بعدم المجازفة، لكنه التفت نحوه بابتسامة غريبة:

- لا تقلق، أنا متعود جدًا على كل أنواع الاحتجاجات. إنهم أبناؤنا، ويجب أن نستمع إليهم.

كانت الساحة مشتعلة جدًا، ولا توحي بوجود أي أرضية للتفاهم. إنها أرض محروقة برعاية كل المظلومين والمستضعفين. ما يحدث في الحقيقة هو نتيجة تراكم الكثير من المشاكل الموروثة من عهد إلى آخر.

في الجهة المقابلة، خرج من بين الجموع شاب أسمر، ملامحه ومشيته تدل على أنه زعيم الحي:

- لا تتعب نفسك معنا. مطالبنا واضحة وتعرفونها جيدًا. كل خطاباتكم لم تعد تجدي نفعًا.

- اطمئن يا بني، جئنا من أجل إيجاد حلول نهائية لكل انشغالاتكم. نحن نخطط لجعل بلدنا في مصاف الدول المتقدمة.

- لقد سئمنا من وعودكم الجوفاء. منذ سنوات ونحن نسمع هذه الخطابات الرنانة، لا تجديد ولا تغيير حتى في كلماتكم. حتى وإن كان بلدنا بحجم قارة، فهذا لا يعني ضياعنا الدائم وفقدان الأمل. مهما أنجزتم، فنحن نستحق أكثر. لا يمكن تغطية الشمس بالغربال.

- فعلاً، هذا ما نسعى لتحقيقه، ولكن لابد من الوقت اللازم والصبر قليلاً. أي مشاريع تتطلب دراسات ومقاولات إنجاز، وهناك مخطط محدد واضح سيتم تنفيذه في الآجال المحددة.

وما كاد رئيس اللجنة يكمل خطابه التاريخي حتى تحولت الساحة إلى ميدان مواجهات ورمي الحجارة. في لمح البصر، أُدخل إلى السيارة، وأسرع الوفد بالهروب من المنطقة المشتعلة. بدا أنها ثورة غير معلنة في هذه المنطقة الهادئة.

في اليوم الموالي غادرت اللجنة المدينة، ومعها تقرير حول الأوضاع والحلول المقترحة من طرف الأعيان ومطالب الشباب الثائرين. وحين كانت الطائرة ترتقي تدريجيًا إلى السماء، اقترب رئيس اللجنة من النافذة. أعمدة الدخان تعلو في كل الشوارع... يبدو أن أعمال الشغب ما زالت مستمرة. وسرعان ما أصبحت المنطقة مجرد رقعة صغيرة بين الرمال وأشجار النخيل المتناثرة وبقايا الوديان الجافة... مدينة ظلمتها الجغرافيا وتعيش خارج الزمن والتاريخ... والجغرافيا أيضًا.

ارتمى رئيس اللجنة على مقعده من أجل إغفاءة مؤقتة، في انتظار الوصول إلى عاصمة البلاد، وهو يفكر في مهمة جديدة إلى مدينة أخرى قريبًا.

حق مشروع

- صباح النور سيدي، مرحبًا بك، تفضل.

- أعتذر... أنا مستعجل، شكرًا على الدعوة الكريمة.

واصل الإمام طريقه، وفي كل مرة يتلقى عروضًا مختلفة ويتهرّب منها بكل لباقة. الجميع يرغب في التقرب منه ونيل بركاته ودعواته. يعتبرونه رمزًا دينيًا مقدسًا، ويتناسون أنه بشر مثلهم، يمارس وظيفة مثل باقي الوظائف. الفرق الوحيد أنه مُلزَم في أقواله وأفعاله أن يكون مثالًا للفضيلة والتسامح والتدين.

حين تستعمل الخطاب الديني، فأنت تستولي على قلوب وعقول المستمعين. لكن الشعب لم يعد يهتم بأي خطاب سياسي يوظف الدين للوصول إلى السلطة، الناس لم يعد يشغلهم سوى الخبز والسكن وفرص العمل.

دخل الإمام المبنى الحكومي بخطوات مثقلة، فاستقبله موظف الاستقبال بحفاوة:

- مرحبًا سيدي الإمام، لم نرك منذ فترة.

- أهلًا أخي... هل السيد عادل موجود؟

- نعم، في مكتبه، أظنه في انتظارك.

بعد دقائق، وجد الإمام نفسه وجهًا لوجه مع رجل المهمات الصعبة في المقر الحكومي، مستشار الوزير الذي يهابه الجميع.

- مرحبًا بك، سعيد برؤيتك هنا... لم نلتقِ منذ مدة طويلة.

- وأنا بك أسعد... بلغني أنك تريدني في أمر مستعجل.

نهض المستشار من وراء مكتبه، وجلس إلى جانب ضيفه، الإمام صاحب المكانة الكبيرة بين الناس. كانت حركة سريعة لاستقطابه أو لمسة دبلوماسية من رجل دولة محنّك.

في تلك اللحظات، راودت الإمام أفكار كثيرة: هل يتعلق الأمر بفرصة للعمل في الخارج؟ لقد شارك في بعثات عديدة، وأي عرض جديد يُعد مكسبًا له.

- الوزير يطلب منك خدمة مهمة لمصلحة البلاد.

اندهش الإمام لسماعه هذا الخبر غير المتوقع.

- الوزير شخصيًا؟ طبعًا، أنا في خدمته وخدمة هذا الوطن الغالي.

- كما تعلم، هذه الأيام تروج الكثير من الإشاعات والأفكار الهدامة التي تستهدف خصوصًا الشباب. هناك أيادٍ خارجية تريد العبث بتاريخ بلادنا والتشكيك في رموزها.

- هذا الأمر متداول منذ سنوات، لكنني أعلم أن رجال الدين عبر كل المنابر يدافعون عن قيم البلد ومبادئه وتاريخه الناصع.

نهض رجل الدولة واتجه نحو النافذة المطلة على الشارع، ثم عاد بخطوات سريعة إلى مكانه.

- وصلتنا معلومات بأن بعض الشباب في أعالي المدينة، في الحي الجديد تحديدًا، يخططون لإثارة الفوضى بعد صلاة الجمعة المقبلة.

- ولكن سيدي، ماذا يمكن أن يفعل الإمام أمام شباب محتج؟ أظن أن هذا دور مصالح أخرى تملك كل الوسائل لإقرار السلم والاستقرار هناك.

- الخطة تقتضي أن تتولى خطبة الجمعة في مسجدهم، وتحاول تهدئتهم بأسلوبك المميز ولغتك الراقية في الإقناع. تتخوف أن يكونوا خاضعين لأيادٍ أجنبية لا تريد الخير لبلادنا.

خرج الإمام متحمسًا، مقتنعًا بمهمته النبيلة: إطفاء نار الفتنة والمساهمة في استقرار البلاد.

في اليوم الموعود، وبعد صلاة جمعة تمحورت خطبتها حول نعمة الاستقرار وأهمية الحفاظ على الوطن ومكتسباته، وقف شباب الحي في وقفة احتجاجية يرفعون شعارات بمطالب مستعجلة. كان الدستور يكفل لهم هذا الحق. قال أحدهم لبعض الفضوليين:

- مطالبنا شرعية، نريدكم أن تقفوا معنا، لا بد من تغيير واقع هذا الحي.

بعد دقائق، خرج الإمام ليؤدي المهمة المسندة إليه، محاولًا التقرب من الشباب «المغرر بهم» كما قيل له.

- لا تستمعوا لأبواق الفتنة، إنهم لا يريدون الخير لبلدنا. ممكن أعرف انشغالاتكم؟

اقترب منه أحدهم بدهشة وقال:

- ومن قال إننا نستمع لأبواق الفتنة؟ نحن نحب بلادنا، مطلبنا بسيط جدًّا: نريد مياهًا صالحة للشرب. نعاني العطش منذ أكثر من شهر!

اندهش الإمام لهذا المطلب البسيط، وقد كان يتصور أن الشباب لديهم أهداف خطيرة تهدد استقرار البلد.

- أعدكم بنقل مطلبكم إلى أعلى السلطات... فعلاً، الماء هو الحياة.

تواصلت الوقفة الاحتجاجية، وانضم إليها المزيد من سكان الحي العطشى. غادر الإمام المكان وقد أدرك أن هؤلاء الشباب ليسوا عملاء لأيادٍ أجنبية، بل مواطنون يطالبون بحق مشروع.

خبايا المدينة

خرج من المبنى الإداري متذمّرًا، فما زال يطالب بمستحقاته المالية، وكل يوم يقدّمون له مبررات جديدة. مرة يطلبون وثائق إضافية، ومرة أخرى يتحدثون عن مراجعة بعض البنود في الاتفاقية المتعلقة بإنجاز المشروع. وهكذا مضت عدة أشهر بلا أي نتيجة.

جلس في المقهى المجاور للهيئة الحكومية التي ارتادها عشرات المرات، حتى أصبح يعرف كل موظفيها، وصار على دراية بما يجري في المنطقة. وجه مألوف، بعضهم يبتسم له، وآخرون لا يلقون له بالًا.

- قهوتك المفضلة سيدي.

حتى نادل المقهى صار رفيقه الدائم، يستقبله دائمًا بالترحاب. زبون مضمون لا بد من رعايته.

- هل ما زلت تنتظر تسوية مستحقاتك هناك؟ سأل النادل.

- لم يتغير شيء، كل يوم أسمع أغنية جديدة منهم.

- اسمح لي أن أساعدك بما أعرفه، فأنت زبون دائم وتبدو شخصًا متواضعًا... لكنك لا تعرف خبايا المدينة وما يحدث في الكواليس. الحل عندي.

لم يصدق ما يسمع! مشكلته المعلقة منذ أشهر، يكون خلاصها عند نادل مقهى؟ إنها سخريات الزمن حقًّا.

- ذاك الرجل الجالس في ركن المقهى على اليسار... صاحب النظارات السوداء. لديه القدرة على تسوية مشكلتك في لمح البصر، لكن بمقابل مالي طبعًا. تستطيع اعتباره إدارة موازية لكل المصالح الحكومية هنا. يسمونه: «السيد عشرة بالمائة».

عاد النادل إلى خدمة الزبائن، بينما غرق صاحبنا في التفكير في العرض المفاجئ. لقد طال انتظاره، وقد تكون هذه فرصته الوحيدة لتسوية ملفه العالق منذ سنوات. نهض من مكانه بلا تردد، وتوجه إلى الرجل الأنيق الذي أرسلته له الأقدار.

- مرحبًا سيدي، هل يمكنني التحدث إليك؟

- تفضل، بكل سرور.

بدا أن الرجل يتوقع تقرّبه منه، فما هي إلا دقائق حتى أطلعه على كل تفاصيل ملفه.

- لا تقلق، موعدنا غدًا هنا في نفس الوقت. سأخبرك بكل ما قمت به من مساعٍ.

عاد إلى منزله والسعادة تغمره. شعر أن الدنيا ستبتسم له أخيرًا. سئم الوعود والخطابات الخشبية، ولم يعد يريد سوى حل نهائي لأزمته الخانقة: الحصول على مستحقاته المالية العالقة بعد إنجاز المشروع الحكومي وفق مقاييس دولية. بناية فخمة تتوسط الشارع الرئيسي للمدينة، وستكون معلمًا بارزًا.

في اليوم التالي، دخل المقهى متفائلاً. ستشرق شمس جديدة واعدة! جلس في مكانه المعتاد، يرتشف قهوته الصباحية، ينتظر بشغف السيد «عشرة بالمائة» الذي وعده بخبر مفرح. تصفح هاتفه محاولاً

نسيان قلق الانتظار، وكأنه يترقب فارسة الأحلام. وإذا حصل على أمواله، يمكنه التفكير في الزواج ومغادرة حياة العزوبية.

وفجأة شعر بيد تربت على كتفه.

- صباح الخير، أعتذر عن التأخر، زحمة مواصلات خانقة.

- لا بأس، المهم أنك وصلت. هل من جديد؟

- كل شيء تحت السيطرة. المطلوب فقط عشرة بالمائة من قيمة الفاتورة. أنت تعرف، لست وحدي، هناك أطراف أخرى ستشارك في استرجاع أموالك.

- لا يهم، اعتبر المبلغ عندك. ما يهمني هو استرجاع حقي المنهوب منذ سنوات.

وفجأة، دخلت فرقة من الشرطة إلى المقهى، وحاصرت المكان، وتقدم ضابط نحو الرجل ذي النظارات السوداء.

- وأخيرًا وقعت بين أيدينا، نبحث عنك منذ أشهر!

تدخل صاحبنا مرتبكًا:

- لم أفعل شيئًا، أجلس في هذا المقهى منذ سنوات، وهذه منطقتي حيث أسكن، لم أفعل ما يخالف القانون!

في لحظات، انتهى الحلم. وجد نفسه متهمًا أيضًا في قضية لا تعنيه. اقتيد مع الرجل إلى سيارة الشرطة التي غادرت المكان بسرعة. ومن النافذة، لمح المبنى الحكومي الذي ارتاده لسنوات. ها هم سيرتاحون من إلحاحه مؤقتًا. هدفه الآن إثبات براءته أمام الجهات المختصة، أما الحصول على مستحقاته المالية... فهذا أمر مؤجَّل إلى أجل غير معلوم.

الاختطاف

انعطف عند مدخل الجسر الكبير، ونزل من سيارته متجهًا نحو المقهى الذي اعتاد أن يرتاح فيه. طلب فنجان قهوة، أشعل سيجارة، وبدأ يراجع المكالمات الواردة على هاتفه النقال. الكثير من الأرقام المجهولة، الكل يبحث عنه: الشرطة، عائلته، وكبار رجال العصابات المتصارعة معه.

أعلن الكثير من الحروب الكبيرة والصغيرة، ولم يعد يهمه الأشخاص أو الدولة بكل هيئاتها. حياته كلها أسماء مستعارة، عناوين مجهولة، ووثائق مزوّرة. الأعداء يترصدونه في كل زاوية، والهروب أصبح هوايته المفضلة، أما المواجهات فنادرة، ولكل مرحلة متطلباتها.

عاد إلى سيارته متثاقلاً، وما إن شغّل المحرك حتى سمع صوتًا غريبًا يخاطبه، والمسدس مصوّب إلى رأسه:

- وأخيرًا وقعت أيها الوغد، منذ شهر ونحن نترقب حضورك إلى هذا المقهى.

- لا تقلق، أخي، لن أبدي أي مقاومة، أنا رهن إشارتكم.

أُنزِل من سيارته وأُدخل بالقوة إلى شاحنة تبريد كانت مركونة جانبًا. أصبح في وضعية السجين أو المختطَف، مُكبَّل اليدين وقد وُضع كيس أسود على وجهه... وأخيرًا وقع بين يدي أحد مطارديه.

انطلقت الشاحنة بسرعة وكأنها تحمل مريضًا إلى مصلحة الاستعجالات الطبية. استقبل وجهه لكمة خاطفة عشوائية بدت وكأنها ترحيب من نوع خاص به.

- وأخيرًا وقعت... ناصر. الزعيم ينتظرك بفارغ الصبر، وستكون نهايتك قريبة.

ناصر واحد من أسمائه المستعارة الكثيرة التي يوزعها هنا وهناك. وقع في أزمات عديدة ويدرك دائمًا إمكانية الهروب في آخر لحظة. أصوات ضجيج المدينة بدأت تختفي تدريجيًا، وبدا أن الشاحنة تدخل منطقة نائية أو غابات معزولة. فعلاً، يبدو أنها النهاية غير المتوقعة. الهروب من قبضة الوحوش البشرية قد يكون معجزة نادرة الحدوث، لكنه كان متأكدًا أن مصيره مرتبط بقرار الزعيم، أما هؤلاء فما هم إلا بيادق ينفذون أوامر سيدهم.

وأخيرًا، وصلوا إلى المكان الموعود: منزل مهجور في الغابة حيث ينتظره الزعيم بكل شوق ولهفة.

في لحظة، رحلت الظلمة وبدأ الضوء يتسرب إلى عينيه بعد أن نُزع الكيس عن وجهه. الغرفة متهالكة، أرضيتها مقرفة، وإضاءة قوية تملؤها. مباشرة أمامه جلس الزعيم على أريكة كبيرة جديدة ومميزة، مما يتعارض مع كل الديكور المحيط.

- وأخيرًا وقعت أيها الصعلوك الحقير. كنت تظن أنك ستظل هاربًا إلى الأبد؟ الكل يبحث عنك. أنت قاتل، سارق، خائن. لقد فعلت كل الجرائم التي يعاقب عليها القانون الوضعي، وطبعًا جهنم تنتظرك بكل تأكيد. لكن هناك أيضًا قانون الزعيم، وأظنك تعرفه جيدًا... الموت نهاية

كل حي مهما عاش. رصاصة واحدة في الرأس ستنقلك بسرعة البرق إلى العالم الآخر، لكنني لن أمنحك رصاصة الرحمة... غالية جدًا عليك. أريدك أن تحس بكل أنواع العذاب الممكنة، لا أريدك أن تغيب عن الوعي، يجب أن تظل ترى وتسمع وتشعر... أريدك أن تتجرع الموت عدة مرات قبل أن تموت.

كان خطابًا مخيفًا سمعه بكل تركيز من الزعيم الذي يهابه المجرمون كبارًا وصغارًا. لكنه استطاع أن يسترخي قليلاً ويوجه نظرات تحدٍّ وثقة ليقول ما يريده؛ فليس له أي خيار إلا المواجهة ما دام قرار إعدامه قد اتخذ بلا تردد.

- هل تظن نفسك ملاكًا؟ أنت أيضًا لديك سجل حافل من جرائم القتل والسرقة. أين أنا من كل جرائمك المذهلة والمرعبة؟ أنت لا تعرف معنى الرحمة أو الشفقة. أعلم أنك قتلت العشرات... لكن ما الفائدة من تصفيتي؟ لا شيء على الإطلاق. لن يمنحوك أي وسام أو جائزة تقديرية. سأتحول إلى مجرد رقم منسي في مفكرتك الدامية. أنت تملك السلطة والمال والقوة... دعني أعيش في عالمي الخاص مع جرائمي الصغيرة، وأعدك أنني لن أقترب من عالمك القاسي والمدمر.

نهض الزعيم من مكانه وقام بجولة استعراضية في الغرفة المقرفة، ثم اقترب أكثر منه، وبكل غضب صرخ في وجهه:

- لا تتعب نفسك، لن تنجو هذه المرة. الفاتورة كبيرة جدًا وطويلة. سرقت أموالي، قتلت بعض رجالي، ووصلت بك الجرأة إلى انتحال شخصيتي في صفقات كبرى مع الأجانب. كنت أسمع عن انتحال صفة رجل دولة أو صاحب منصب رفيع، أما أنت فقد أبدعت في ذلك بجدارة. لكن تأكد أنها آخر إنجازاتك في هذه الحياة.

فجأة، سُمِع صوت قنابل ضوئية وتبادل إطلاق النار خارج المكان. دخل أحدهم مذعورًا:

- سيدي، نحن محاصرون. قوات كبيرة من الشرطة تحاصرنا، وطائرة عمودية فوقنا.

نهض الزعيم بسرعة، حاملاً سلاحه الرشاش:

- إذن هناك وشاية كبيرة... علينا مغادرة المكان فورًا!

وأخيرًا، ستتغير نهايته مهما تسارعت الأحداث. سيتمكن من بداية حياة جديدة... استغل الفوضى العارمة في المكان ونجح في الهروب من مختطفيه.

التوصية الذهبية

جلس رمزي في متجره يراقب العمال بتركيز شديد. الركود يضرب تجارة الألبسة، ولابد من إيجاد بدائل أخرى.

بعد دقائق وصل صديقه في عالم الاحتيال والإجرام لمناقشة عملية جديدة في الجوار.

دخل زيّان، الحليف الدائم في كل الصفقات والمؤامرات. في الخمسينات من عمره، ما زال يواصل مسيرته في عالم الشر والمكيدة. لم تعد تردعه القوانين الوضعية ولا الشرعية، شعاره الوحيد: المكاسب مهما كانت الطريقة.

- هل من جديد بخصوص المناقصة؟

- للأسف، ما زال الملف غامضًا وصعبًا، لم أجد أي وسيط لنا في تلك الهيئة العمومية. أول مرة أجد نفسي في مواجهة مجمع حكومي كل موظفيه نزهاء.

- لا تبالغ. حين تكون العروض المالية كبيرة تسقط كل شعارات النزاهة والأخلاق. ربما لم تبحث كثيرًا في قائمة المستخدمين. ليس شرطًا أن يكون من نتعامل معه صاحب منصب كبير. أحيانًا عامل بسيط يفتح لنا كل الأبواب.

- الوقت يداهمنا، والآجال المحددة للمناقصة قريبة. ربما نضطر لطلب المساعدة من صديقنا مهدي. أنت تعرف أنه يمتلك خبرة كبيرة في انتحال صفة الشخصيات المرموقة.

- نعم، إنه داهية في تقليد الأصوات عبر الهاتف. يمكنه أن يكون وزيرًا أو جنرالًا في لحظات.

بعد أيام من الانتظار بلا نتيجة، انتقل رمزي وصديقه إلى مطعم مغمور في ضاحية المدينة للقاء مهدي. تطلّب الأمر موعدًا مسبقًا، فهو شخصية مطلوبة للشرطة، وكل تحركاته تحت المراقبة.

«مطعم الغرباء الثلاثة» ... لافتة كبيرة مضيئة في الواجهة. اسم مثير فعلًا في منطقة معزولة بعيدة عن وسط المدينة. قد يكون مجرد واجهة لنشاطات مشبوهة، وما أكثرها في هذه الأيام.

في ركن منزوي جلس مهدي، صاحب القدرات الخارقة في الاحتيال. وبفضل انتصاراته الكثيرة، أصبح الملاذ المفضل لكل راغب في كسب مصلحة أو صفقة مع الهيئات الحكومية.

جلس الرجال الثلاثة في مطعم «الغرباء الثلاثة». لقاء قد يقلب كل الموازين. الإثارة كانت لتكون أكبر لو حُدد موعده في الثالثة مساءً!

بعد أن استمع مهدي لعرض شامل حول الطلبية الجديدة، أشعل سيجارته، وبكل ثقة وتركيز قدّم وصفته السحرية الجاهزة:

- غدًا صباحًا سأجري مكالمة مع المدير العام. حين يتكلم الجنرال زيدون، تنفذ أوامره بلا تردد. ما زالت هناك هالة كبيرة حول القيادات المهمة. هؤلاء المدراء مثل الأسد الجسور أمام المواطنين، لكن أمامي

مجرد دجاجة مبللة خائفة. منذ انتحلت صفة الجنرال زيدون، لا أحد يجرؤ على مناقشة أوامري.

في اليوم التالي، نهض مهدي مبكرًا على غير عادته. فهو ليس موظفًا حكوميًا ملزمًا بدوام قاتل، بل يمارس أعماله الحرة على طريقته. لكن هذه المرة مضطر لمواكبة مواعيد الهيئات الحكومية. في حدود العاشرة صباحًا وصله اتصال من شخص مقرب يخبره بوجود المدير العام في مكتبه. إنها اللحظة المثالية لإجراء المكالمة الحاسمة، صفقة اليوم.

أمسك بالهاتف الثابت وبدأ الاتصال.

على الطرف الآخر: السكرتيرة.

- صباح الخير، أريد التحدث إلى المدير العام.

- من معي من فضلك؟

- معك الجنرال زيدون... بسرعة آنسة.

- حاضر، حاضر سيدي. لحظات ويكون معك.

ابتسم. سعادة أولية اجتاحته، لقد ابتلعت السكرتيرة الطعم بسهولة. كان يستعد لأداء الدور الذي حفظه منذ سنوات: الجنرال القوي الذي لا يصمد أمامه أي مدير مهما كان منصبه. لا أحد فيهم نزيه، كلهم لديهم ملفات خطيرة، وخوفهم على امتيازاتهم ومناصبهم يجعلهم ينفذون الأوامر بلا نقاش.

كان المدير العام مجتمعًا مع مساعديه، لكن ما إن أخبرته السكرتيرة بهوية المتصل حتى تغيّرت ملامحه. طلب من الجميع مغادرة المكتب،

ليستعد للجنرال زيدون. سمع عنه الكثير: الرجل النافذ القادر على الإطاحة بأي مدير. كل ما تمنى هو أن يقدر على تلبية طلباته.

جلس على مقعده محاولًا استرجاع توازنه. المكالمات الهاتفية غالبًا أخطر من المواجهة المباشرة.

بعد لحظات بدأت المكالمة الحاسمة:

- مرحبًا حضرة الجنرال، أنا في خدمتك.

- ليس لدي وقت كثير. الوضع خطير والأعداء يتربصون ببلادنا. المناقصة المتعلقة ببناء المجمع التجاري الكبير يجب أن تكون من نصيب صديقي رمزي. سيكون عندك بعد ساعة. لا تغادر مكتبك.

- لكن سيدي، هناك لجنة صفقات وإجراءات قانونية...

- اسمع، لست مواطنًا يتباكى على باب مكتبك. أنت تعرف ما يجب القيام به. بعد ساعة يكون صديقي عندك. لا تتلاعب معي... أظنك تعرف مصير من يتحداني.

- أعتذر منك سيدي، سوف أتدبر الأمر. أنا في انتظاره.

انقطع الاتصال. الجنرال زيدون لا ينتظر جوابًا، فهو يعرف أن أوامره غير قابلة للنقاش. أصبح ببساطة كائنًا أسطوريًا يرعب كل المدراء مهما علت مراكزهم.

ارتمى المدير العام على مقعده، محاولًا التخفيف من وقع الصدمة. ليست أول مرة يجد نفسه في مرمى جهات نافذة. هناك مستوى معين من التعليمات يُنفَّذ بلا نقاش. وطبعًا، يعرف كل الأساليب الإدارية التي ستجعل المناقصة ترسو على صديق الجنرال زيدون... بكل شفافية.

الدور الثاني

- للأسف، سيدي... النتائج متقاربة جدًا بينكما، وقد يكون هناك دور ثانٍ.

- نحن أسسنا للديمقراطية، ويجب أن نقبل نتائجها. يتعين علينا إعداد حملة انتخابية جديدة تكون أكثر شراسة من الأولى. لدي ثقة كبيرة في المواطنين الذين منحوني أصواتهم في الدور الأول.

- لو أعطيتنا الضوء الأخضر، لكنا حسمنا الأمر في الجولة الأولى، طبعًا بنفس أساليب الانتخابات القديمة التي جعلت الرؤساء الذين سبقوك يعمرون طويلاً.

نهض الرئيس من مكانه واقترب من مستشاره الخاص:

- لقد قطعت عهدًا على نفسي... أن أجعل البلاد تعيش واقعًا جديدًا يختفي فيه التزوير. حذارِ أن تعيد هذا الكلام أمامي لاحقًا.

- أعتذر منك، سيدي... نعم، أنت رفعت شعار الديمقراطية والتداول السلمي على السلطة. كانت هفوة مني. بما تملكه من حب الجماهير، سوف تحقق نصرًا ساحقًا على الحزب المعارض.

في فيلا راقية بأعالي العاصمة، جلس أربعة رجال... الأيادي الخفية التي تسعى لخلط الأوراق وتعطيل الانتخابات بأي طريقة.

- أعمال الشغب أضحت موضة قديمة ولم تعد تلقى الرواج المطلوب. لا بد من خطة بديلة تحقق صدى إعلامي كبير وتوقف المسار الانتخابي.

- الخطة جاهزة، وأنتظر الأمر بتنفيذها: سرقة صناديق انتخابية قبل وصولها إلى مراكز التصويت. فقط يجب أن يكون التنفيذ متزامنًا.

- لا، ليس إلى هذا الحد! لسنا جمهورية موز. نحن بلد له تقاليد عريقة في الانتخابات. يجب أن تكون هناك حركة مفاجئة تقلب الموازين، مؤامرة «علمية» تلغي الانتخابات بطريقة ذكية وفعالة.

- كل المؤشرات تدل على أن الدور الثاني محسوم لصالح الرئيس الحالي. بقاؤه يعني محاسبتنا على مكاسبنا السابقة. المحاكم تلاحق الجميع وسيأتي دورنا قريبًا. إما إلغاء الانتخابات، أو فوز مرشحنا في هذا السباق الحاسم.

نهض كبير الجلسة، مشى بخطوات متأنية نحو الشرفة، ثم عاد إلى وسط القاعة يحمل أفكارًا جديدة:

- نحن في زمن جديد لم أعشه منذ سنوات. لم نعد نعرف من يحكم أو من صاحب القرار. العلبة السوداء اختفت تمامًا... صانع الرؤساء لم يعد موجودًا.

في مكان آخر، جلس منافس الرئيس في الدور الثاني يقرأ عناوين الصحف الصباحية. كلها موالية للسلطة الحاكمة وتعتبر أن السباق الرئاسي حُسم مسبقًا. الذهنيات القديمة ما زالت تتحكم في الإعلام،

ويبدو أن «حراس المعبد» لا يؤمنون بالتداول السلمي على السلطة إلا في الإطار المرسوم مسبقًا. كانت هذه الأفكار تدور في ذهنه في انتظار مدير حملته الانتخابية.

- أهلاً سيدي. أعتذر عن التأخر، لكن أعلمك أن كل المناضلين واللجان مجندون من أجل فوزك في الدور الثاني. بعض الأحزاب المعارضة الصغيرة أعلنت مساندتها لنا.

- لا تصدق كل ما يقال. الأصوات الحقيقية هي تلك التي تمنح يوم الاقتراع. أما الباقي فكلام معسول وتموقع سياسي مؤقت. سنركز على المدن الكبرى حيث ينتشر الوعي الانتخابي. أما المدن الداخلية والقرى، فلا أمل يُرجى منهم؛ دائمًا يصوتون لمن يحكم. ولاؤهم يُضمن عبر مشاريع بسيطة لفك العزلة. مناطق الظل هذه يظنون أن أي مشروع صغير يُنجز لهم بمثابة وثبة تنموية كبيرة.

جاء يوم الاقتراع. بدأت الانتخابات بهدوء وإقبال ضعيف في المدن الكبرى، بينما كان التوافد قياسيًا في المناطق الداخلية والصحراوية. مناطق تصوت غالبًا من أجل الاستقرار، وتملك حماسة كبيرة للتوجه مبكرًا إلى مراكز التصويت.

وكان التلفزيون العمومي، كعادته، الناقل الحصري والمتميز، بأرمادة من المراسلين في كل المناطق لإظهار أن المواطنين توافدوا بكثافة إلى مراكز الاقتراع.

في اليوم الموالي، أُعلن فوز الرئيس بفارق شاسع عن منافسه. قيل إن الإنجازات التي حققها ساهمت في نجاحه. أما الطرف الآخر، فلم

يعترف بالنتائج، معتبرًا أن الانتخابات شابتها ممارسات غير ديمقراطية.

عقد ندوة صحفية سريعة أعلن فيها موقفه:

- لن أعترف، لا اليوم ولا غدًا، بهذه النتائج. إنها مهزلة انتخابية برعاية حكومية.

سأله صحفي:

- لكن كل المراقبين قالوا إن الانتخابات كانت نزيهة وشفافة؟

- عن أي نزاهة تتحدث؟ صحيح لا يوجد تزوير بالمعنى المادي، لكن هناك تزوير العقول وتوجيه النوايا إلى جهة واحدة.

- ولكن سيدي، إذا كنتم تؤمنون بالديمقراطية، فحرية الاختيار مضمونة، والمواطن يملك حق التصويت لمن يراه الأفضل.

انزعج المرشح كثيرًا من هذا الصحفي المشاكس، واعتبره نتاجًا لغسيل الأدمغة أو مجرد بيدق ضمن البيادق المجندة.

غادر القاعة مثقلاً بالحزن وخيبة الأمل. هل ينسحب من السياسة؟ أم يختفي ليعود بعد سنوات منافسًا من جديد؟

في الجهة الأخرى، بدأت الاحتفالات بالفوز الكبير الذي كان متوقعًا، خاصة أن الإنجازات الميدانية كانت حاسمة.

- مبروك، سيدي. نتمنى لك التوفيق في العهدة الجديدة. نحن جميعًا مجندون من أجل نهضة البلاد.

- ما حصل هو تجسيد لرغبة المواطنين في جعل بلادهم في مصاف الدول المتقدمة. في العهدة الثانية سنكون عند حسن ظن هذا الشعب الكبير الملهم.

المناضل المنسي

جلس في ركنٍ منزوي من المقهى يقرأ جريدته اليومية المفضّلة. بعد كل هذا العمر، هل يمكن أن يساهم في تغيير الوضع العام للبلاد؟

لا بدّ من إحداث نقلة نوعية في الخطاب السياسي، فالحديث عن الماضي وإنجازات الأجداد لم يعد يؤثّر في شباب اليوم، الغارق في مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الإنترنت.

وبينما كان منشغلاً بإعداد خريطة طريق جديدة لإنقاذ البلاد والعباد، وصل صديقه في النضال السياسي.

- مرحبًا، لقد تأخرت كثيرًا.

- أعتذر يا صديقي، كنت مع حفيدتي في المدرسة، فقد ذهبت معها لأن والدها في مهمة عمل. كيف حالك أيها صانع الشعارات؟

- أنت مخطئ يا صديقي، أنا صانع الرجال والمواقف. الشعارات ليست سوى عناوين صغيرة تعكس إنجازات كبيرة ودائمة.

- ما تقوله في حدّ ذاته ليس إلا شعارات... شعارات.

كان هدفه الكبير تأسيس حزب سياسي معارض. منذ أيام يتواصل مع الكثير من الأصدقاء القدامى، يتبادل معهم الآراء من أجل إعداد أرضية مناسبة للقطيعة مع واقع سياسي ميؤوس منه. فالأحزاب المعارضة القائمة تمّ تدجينها منذ سنوات، وأصبحت مجرد ديكور انتخابي بائس.

- لا بدّ من استقطاب أكبر عدد من المناضلين، يجب أن نركّز على النخبة المؤثرة القادرة على تغيير الواقع في الحي والعائلة والمحيط الاجتماعي.

- أعرف مناضلاً كبيرًا مهمّشًا، يمكننا الاستعانة به لتحقيق القفزة النوعية التي نريدها.

- مرحبًا به، بشرط ألّا يكون متورّطًا في أي سلوك معادٍ للوطن. أنت تعرف أنّ السياسة ليست نزوة عابرة، ولابد من أخذ كل الاحتياطات المناسبة.

- لا تقلق، نحن في البداية فقط، ولدينا متسع من الوقت لاختيار الكفاءات التي نحتاج إليها. بالنسبة للمناضل المنسي، يمكننا زيارته والتعرّف عليه عن قرب. يسكن في القرية المحاذية للجبل، ويعيش في عزلة منذ فترة طويلة.

بعد أيام قليلة، كانت الرحلة القصيرة باتجاه منزل المناضل المنسي. حافلة متهالكة تربط تلك القرية المعزولة بوسط المدينة. كل الركاب بدت عليهم علامات الشقاء الدائم، باستثناء بعض التلاميذ المتفائلين بالحياة، يتبادلون الحكايات والنكات طوال الطريق.

كانت القرية تتوسّد سفح جبل تملؤه الأشجار والوديان. الطبيعة هناك تمنح بسخاء لكل البشر، بلا وساطة ولا معارف: هواء عليل، مناظر خلابة، وهدوءٌ نادر... كانت هذه السمة المميزة للمكان.

بعد الوصول إلى مدخل القرية، كان عليهما أن يقطعا مسافة متوسطة حتى مشارف الجبل حيث يسكن المناضل المنسي، في بيت يعانق الأزهار والورود.

عند المدخل جلس شاب في مقتبل العمر يداعب قطة مشردة.

- هل والدك موجود في البيت؟

- نعم، إنه ينتظركما منذ الصباح، تفضلا من هنا.

في مكتبه المميّز، كان المناضل المنسي يتصفح بعض الجرائد اليومية محاولًا أن يعرف ما يجري في البلاد. لقد غادر الساحة السياسية منذ فترة طويلة، لكنه بدا سعيدًا بلقاء الضيوف.

- أهلاً بكما، وأخيرًا وصلتما. كدت أنام! بعد الظهر لا أستطيع مقاومة النعاس.

في جلسة سياسية ساخنة تمّ استعراض الواقع العام. كان الجميع مقتنعًا بضرورة إجراء حوار شامل من أجل انطلاقة جديدة تستوعب كل القوى السياسية الناشئة.

- لا بدّ من إيجاد جسر توافق يجمع بين الشباب والكهول على كل الأصعدة، قال المناضل المنسي بلا تردد.

- لكن النخبة غائبة تمامًا، أصبحت مثل عامة الناس، لا تبحث إلا عن المكاسب والمنافع.

- قد تختلف الظروف من بلد إلى آخر، لكن قواعد اللعبة السياسية لا تتغيّر: حزب حاكم وأحزاب معارضة، والتنافس يجب أن يكون ديمقراطيًا من أجل تحقيق برامج تخدم جميع المواطنين وكل الطبقات الاجتماعية.

كانت الجلسة في منزل المناضل المنسي فرصةً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكن في النهاية لم تتعدّ كونها حوارًا عابرًا في قرية معزولة. التغيير الحقيقي لا بد أن يبدأ من المدن الكبرى، ويستقطب الجماهير عبر

وسائل الإعلام المختلفة أو منصات التواصل الاجتماعي.

بعد دقائق، دخل الشاب مسرعًا إلى الغرفة واقترب من والده:

- غرباء يحاصرون المنزل، ويطالبون بخروجك الآن.

نهض المناضل المنسي بتثاقل، وكأنه يدرك هوية الزوار، ثم التفت إلى ضيوفه قائلًا بهدوء:

- يبدو أنكم كنتم تحت المراقبة.

في صباح اليوم الموالي، جلس رجل مثقف مدمن على قراءة الجريدة الوحيدة التي تصل إلى المدينة. ما أثار انتباهه عنوان بالخط العريض في الصفحة الأولى:

رئيس الحكومة يعرض حصيلة النشاط الحكومي أمام البرلمان.

وفي الجانب الأيسر للصفحة، عنوان جانبي أقل إثارة:

تفكيك خلية نائمة.

الهروب الكبير

رجال الأعمال يتساقطون بطريقة مذهلة. حرب كبيرة ضد الفساد، إنه شعار المرحلة السياسية الحالية.

أخبار المحاكمات تملأ الجرائد وكل مواقع التواصل الاجتماعي... سيأتي دوره حتمًا، إنه زلزال يضرب كل أصحاب الثروات غير المشروعة في العهد السابق، وكل القضايا مرتبطة ببعضها، وكل غريق يجرّ معه غرقى جدد. خاصة أن نمط العلاقات السائد بين كل المفسدين لا يخضع لأي حسابات أخلاقية، فكل طرف يسعى إلى الهروب بجلده بعد غرق السفينة.

جلس يرتشف كوبًا من الشاي فوق الكثبان الرملية في أقصى جنوب البلاد، بلدة صغيرة لا يعرفها أحد، اتخذها مكانًا لاختفائه المؤقت بعيدًا عن الأنظار، برعاية أكبر رجل تهريب في المنطقة يعتبر نفسه بمنأى عن الدولة وكل أجهزتها التي تحارب الفساد وتبحث عن كل من ظهر اسمه في التحقيقات. فعلاً، الجنوب يبقى دائمًا المكان المناسب، حتى تهدأ العاصفة أو يتم إيجاد خطة بديلة مضمونة للهروب من باقي الوطن... إلى خارج الوطن.

يتابع أخبار العباد والبلاد بسهولة هنا. جميل أن تصل شبكة الإنترنت إلى هذه المنطقة المهمشة. في الحقيقة، وجود الشركات الأجنبية التي

تنقّب عن البترول جعل هيئة الاتصالات مضطرة إلى وضع هوائيات هنا. البلاد تريد أن تحافظ على مصداقيتها أمام العالم، أمّا هؤلاء السكان البؤساء فلا يهم واقعهم ولا معاناتهم اليومية. حقهم الوحيد الدائم هو الحصول على البطاقة الانتخابية لاستعمالها في المواعيد الكبيرة. إنها مناطق الظل التي لم تسطع عليها الشمس منذ سنوات.

أخذ يمشي بين كثبان الرمال وأشجار النخيل. مناظر سياحية رائعة، سخاء الطبيعة وجحود الإنسان. الأيام تمضي وما زال عالقًا في هذه القرية الجنوبية المعزولة، ينتظر الفرصة المواتية للهروب خارج البلاد. لا بد من طريق آمن على الجانبين، فهناك أيضًا عصابات كثيرة في المنطقة مختصّة في الاختطاف وطلب الفدية. وبملامحه الأوروبية قد يكون ضحية مناسبة لهم.

في تلك الأمسية الصيفية الهادئة واصل جولته بكل ارتياح. مناظر رائعة جعلت الكثير من السياح الأجانب يتهاطلون على هذه المنطقة. إنها الطبيعة التي تسحر العيون والقلوب. فجأة وجد نفسه أمام بحيرة غريبة وسط الرمال، وعلى جوانبها طيور مهاجرة زادت المكان بهاءً. بدأت أشعة الشمس تتوارى تدريجيًا... إنه الغروب، حيث تختفي أشعتها بطريقة مذهلة.

كان يفكر في مساره الصاروخي في عالم الاقتصاد والمال، وامتلاكه لمجموعة شركات في كل القطاعات: من الحليب ومشتقاته إلى صناعة الحديد والترقيات العقارية. لم يترك أي فرصة مناسبة، خاصة أنه كان يحظى بدعم أصحاب القرار: قروض مضمونة، عقارات في كل مكان،

وإعفاء من الضرائب. كانت هناك ظروف «سحرية» تسمح لأي مغامر أن يكون رجل أعمال. فعلاً، كانت سنواته الذهبية. لكن الآن سقط المعبد على الجميع، وبدأت تصفية الحسابات. لا مكان له في صراع الأجنحة... طموحه الوحيد هو الهروب قبل فوات الأوان.

قرر العودة إلى القرية التي ابتعد عنها كثيرًا، لكنه وجد نفسه تائهًا بين الكثبان وأشجار النخيل. كل المسارات متشابهة، وكل خطوة تقوده نحو المجهول، خاصة وقد أصبح الظلام سيد المكان. بعد ساعات من المشي قرر أن يأخذ قسطًا من الراحة قرب نخلة معزولة. أنهكه التعب والعطش، ولم يكن يتصور أن الطبيعة ستنفّذ فيه حكم الإعدام قبل أن يدخل أروقة المحاكم.

في اليوم الموالي فتح عينيه بكل تثاقل ليتأمل واقعه الجديد: سقف غريب وغرفة متواضعة وجد نفسه فيها. نهض بكل خوف، لكن الشيخ الذي يجلس أمامه طلب منه البقاء في مكانه.

- لا تخف، سيدي. أنت في مكان آمن. عثرت عليك في وضعية حرجة. اشرب هذا الكوب من الماء، وأمامك الطعام... أنت ضيفنا.

لم يصدّق وضعه الجديد؛ من الهروب إلى السقوط في الهاوية. لكن يبدو أن الرجل يعيش بعيدًا عن وسائل الإعلام، وإلا لعرفه من أول وهلة: رجل الأعمال الهارب بعد سقوط النظام، صورته في كل مكان.

- شكرًا أخي، كنت أتجول في الجوار وفقدت طريقي.

- إنها الصحراء، كثيرون ضاعوا فيها. الحمد لله أنني وجدتك في

طريقي. اطمئن، سوف ترتاح، وسأساعدك على العودة إلى ديارك. سأخرج وأعود لك لاحقًا.

بعد دقائق نهض من مكانه ليتفقد المكان. فتح باب الغرفة ليجد نفسه وسط ساحة كبيرة على جانبيها ثلاث غرف صغيرة، وفي الوسط بئر تقليدي. بالقرب منه أطفال صغار يلعبون ويمرحون، وغير بعيد عنهم كانت هناك امرأة وابنتها تغسلان بعض الأواني. حياة بسيطة... الحيوية والسعادة تغمر المكان. عالم آخر، لا صراعات ولا صفقات ولا مؤامرات. عاد إلى غرفته بهدوء، ارتمى على فراشه المتواضع بكل صعوبة، وما زال جسده بحاجة إلى الراحة.

بعد أيام في ضيافة الشيخ الغريب، غادر المكان برفقته إلى غاية الطريق العابر للصحراء، حيث يمكنه العودة إلى القرية التي كان فيها.

- في هذا المكان، سيدي، ستمر الشاحنات بعد قليل. يمكنك الركوب معهم وستكون في أمان.

- شكرًا سيدي... لقد أرسلتك الأقدار في طريقي.

- الحمد لله أنك استرجعت عافيتك. يجب أن أغادر. وهذا يكفيك من الماء. اطمئن، سوف يصلون بعد دقائق.

اختفى الشيخ بين الكثبان وغادر المكان. تصارعت الأفكار في ذهنه: هل هو ضياع جديد في الصحراء؟ وأين الشاحنات التي تكلم عنها الرجل؟ الوقت يمضي، واليأس بدأ يتسرّب إلى نفسه. سنوات عاشها في أفخم الأماكن، يتمتع بالرفاهية ويسافر عبر كل دول العالم بكل أريحية.

كانت القاعات الشرفية ترحب به بصفته مقربًا من أصحاب القرار. والآن أصبح مطاردًا لا يجد مكانًا آمنًا له، في هذه الصحراء الشاسعة... يقف منتظرًا فرصة بسيطة للحياة فقط. فعلاً، ما أصعب أن تكون في القمة ثم تجد نفسك تحت الحضيض.

وفجأة توقفت أمامه شاحنة عسكرية. نزل قائد الفرقة واقترب منه بكل ثقة:

- أهلاً... وأخيرًا وقعت بين أيدينا أيها الهارب من القضاء.

أراد التوجه نحو الكثبان المحاذية للطريق، لكنه وجد نفسه محاصرًا من أربعة رجال. لا يمكن أن يفلت منهم، إنهم حرس الحدود يتمتعون بلياقة عالية، بينما هو رجل أعمال قضى حياته بين السفريات والفنادق والرفاهية.

- سيدي، أنتم مخطئون. أنا مواطن صالح، ولم أفعل شيئًا ضد بلادي.

- هذا الأمر لا يعنينا. مهمتنا القبض عليك ومنعك من الهروب. صدرت بحقك مذكرة توقيف منذ شهر. اركب ولا تضيّع وقتنا، سوف نسلمك للمصالح المختصة.

غادرت السيارة المكان في لمح البصر. لم يصدّق أنه فشل في مغادرة البلاد. تأمل بقلق الرجال الأشداء الذين يحيطون به، وقد بدا أنهم سعداء باقتياده لمواجهة مصيره المحتوم. عزاؤه الوحيد أنه سيكون خبرًا مهمًا عبر كل القنوات الفضائية... وربما موضوعًا لحوارات ولقاءات صحفية عاجلة.

نحتفظ بحق الرد

استسلم الزعيم للنوم. فعلاً، قيادة البلاد ليست بالأمر السهل، وخاصة حين يكون لديك شعب مملّ... لا يهمه سوى الأكل والهوس اليومي بارتفاع الأسعار.

رنّ الهاتف المحاذي لسريره، فحمل السماعة بكل تثاقل.

- سيدي، العدو يضرب من جديد... الصواريخ تتهاطل على حي الانتصار في الضاحية الشرقية للعاصمة.

- ستدفع الثمن غالياً غداً. لماذا تزعجني في هذا الوقت المتأخر من الليل؟... حين يكون القصر الرئاسي بخير، تكون البلاد بخير.

- هل من تعليمات، سيدي؟

- عن أي تعليمات تتحدث؟ يتعين عليكم إذاعة البيان السحري: نحتفظ بحق الرد في المكان والزمان الذي نحدده نحن.

عاد الزعيم إلى أحلامه السعيدة. غداً سوف ينهي مهام هذا الوغد، غير مدرك أن الصواريخ التي تسقط من حين إلى آخر ليست سوى تنشيط للحياة السياسية وإبعاد الأنظار عن كوارث البلاد الداخلية.

في اليوم الموالي، كانت كل وسائل الإعلام الرسمية تتحدث عن البيان الهام وصمود البلاد أمام العدوان الغاشم، وأن الرد الكبير قادم

لا محالة. الثورة مستمرة ولن تنجح الإمبريالية وعملاؤها في المساس باستقرار العباد والبلاد.

جلس في مكتبه الفخم يتصفح هاتفه النقال ويتابع أخبار البلد والعالم. أصبحت القنوات الفضائية أقل مواكبة للأحداث، فيما أضحت منصات التواصل الاجتماعي الإعلام البديل.

دخل مستشاره الخاص يحمل بعض الملفات المستعجلة...

- سيدي، وسائل الإعلام الأجنبية والقنوات الفضائية المأجورة ما زالت تتربص ببلادنا. يقولون إن البلاد تعيش حرباً أهلية، وحتى العاصمة لم تعد آمنة.

- لعنة الله عليهم! يكذبون في الصباح والمساء. إنهم المعارضون الخونة الذين يقدمون أخباراً زائفة لأسيادهم. سأقوم بزيارة ميدانية للسوق الشعبي للمدينة نكاية فيهم، وأثبت للعالم أننا بخير، وأن العملاء لن يستطيعوا الاصطياد في المياه العكرة.

بعد أيام من الاستعدادات والتحضيرات الطارئة، جاءت تلك اللحظة التاريخية الحاسمة التي سيخرج فيها الزعيم من قصره المحصّن بمختلف القوات العسكرية. أراد أن يثبت للعالم بأنه ديمقراطي ومتواضع ويحظى بالتقدير والاحترام من كل أطياف الشعب.

وصل إلى مدخل السوق رفقة الوفد المرافق له (الذي تعبّر عنه وسائل الإعلام الرسمية بـ «الوفد المنافق له»). وقف قائد الحرس عند المدخل يراقب الوضع بكل اهتمام. اقترب منه مساعده وهمس في أذنه:

- كل من هم في السوق رجالنا: الباعة، المتسوقون، المتسولون، أصحاب المتاجر والعربات المتنقلة. لقد قمنا بتغيير شامل لمكونات السوق. وطبعاً وسائل الإعلام الرسمية هي بيادقنا دوماً كما تعرف. أما مراسلو وكالات الأنباء الدولية، فهناك أربعة فقط، تم اختيارهم لينقلوا صورة ناصعة عن بلدنا.

بدأ الزعيم يوزّع الابتسامات في كل الاتجاهات، ويحاول كسب قلوب الجماهير المزيّفة التي تحيط به. كان يدرك أن أيامه في الحكم أضحت معدودة. رياح التغيير تضرب في كل الدول المجاورة، والدول الكبرى لم تعد تهتم به ولا بخدماته. فقد ظهر جيل جديد من العملاء الكبار الذين يتكفلون بإنجاز كل المهام القذرة. إبادة الشعوب أضحت عملاً روتينياً، فكل المنظمات الدولية مجرد دمى تحركها الحكومات الخفية للعالم.

اقترب منه رجل غريب، ملامحه تدل على تذمّره الكبير من مشاكل البلاد والعباد.

- سيدي، ابني اختفى منذ أشهر ولا خبر عنه. شاب متواضع طيب، يدرس في الجامعة. خرج ولم يعد.

تفاجأ الزعيم بالرجل الذي «يعزف خارج الجوق» المبرمج مسبقاً. قائد الحرس لم يستوعب الموقف: رجل قادم من المجهول يقترب من الزعيم! كل المرافقين في حالة استنفار.

- اطمئن أيها الرجل الطيب، ستتكفل كل مصالح الدولة بالبحث عنه في أقرب الآجال. أعداؤنا في الخارج يفعلون كل شيء من أجل استغلال

كل الطاقات عندنا. ربما يكون قد ركب قوارب الهجرة غير الشرعية. لكن ستأتيك أخبار سعيدة عنه قريباً.

بالرغم من تدخل الزعيم «المميز والفعال»، تغيّرت ملامح قائد الحرس وانتابه خوف شديد. كان يدرك أن عواقب هذا الحدث ستكون وخيمة.

وصل الزعيم إلى المربع الأخير من السوق. تبادل التحيات والابتسامات مع الجميع. وفيما كان يغادر المكان، استوقفه كهل، مظهره يدل على أنه متقاعد أنهكته الأيام وغلاء المعيشة. لم يتمكن من الاقتراب أكثر، إذ شكلت كوكبة من رجال الحراسة حاجزاً منيعاً أمامه حتى كاد يسقط. هنا تدخّل الزعيم في آخر لحظة:

- أتركوه. نحن بلد ديمقراطي. دعوه وشأنه. تفضل، ماذا تريد أيها المواطن العزيز؟

- لدي سؤال واحد أبحث له عن إجابة منذ سنوات، سيدي...

- مرحباً، تفضل، كلنا في الاستماع إليك...

- لماذا لا تردّون على القذائف والصواريخ التي تسقط يومياً على عاصمتنا؟ المفروض أننا نمتلك أكبر جيش في المنطقة.

- يمكننا أن ندمر العدو في دقائق، لكننا نريد إقامة الحجة عليه أمام أنظار العالم. نحن دولة سلام ولسنا دولة مارقة.

تم إرغام الكهل على مغادرة المكان بسرعة. ربما سيكون آخر سؤال يطرحه في حياته.

انتهت جولة الزعيم «التاريخية» في وسط المدينة بكل أريحية. بهذه الطريقة يكون قد أعطى درساً لكل من تسوّل له نفسه المساس باستقرار البلاد ومكانتها الإقليمية والدولية.

وبمجرد خروج سيارات الوفد من السوق، سُمع دويّ انفجارات. لم يتفاجأ الزعيم بذلك، والتفت إلى مرافقه:

- إنها تحية من العدو لنا. سنبقى صامدين مهما كان الثمن.

- سيدي، زيارتكم للسوق وهو يتعرض للقصف مؤشر على أنكم مع الشعب في كل ما يواجهه من أزمات. دامت قيادتكم الرشيدة.

رهينة في الصحراء

كانت تبدو نهاية أسبوع مملّة وعادية. الأهم أنّه سيرتاح يومين بعيدًا عن مشاكل المواطنين وإرهاق العمل الدائم.

وبينما كان يرتّب أوراقه لمغادرة مكتبه، انتبه إلى جهاز الفاكس الذي بدأ يهتزّ في مكانه. اقترب ليقرأ الرسالة: مستعجل جدًّا.

جلس متوتّرًا ليتبيّن محتوى الفاكس الملعون... وزير الصناعة في زيارة عمل للمنطقة.

وداعًا لنهاية الأسبوع، ومرحبًا بالإرهاق والتعب. لم يكن يتصوّر أنّ هذه المدينة الجنوبية المعزولة ستصبح قبلةً للوزراء... يبدو أنّ للمواعيد الانتخابية القادمة علاقة بهذه الزيارة غير المتوقعة.

بدأت التحضيرات في نفس الأمسية، وكان لا بدّ من إشراك كل القطاعات المعنية لتنفيذ برنامج الزيارة المفاجئة.

- بعض المدراء في عطلة، سيدي...

- يجب استدعاؤهم فورًا، الكل معني. هل نسيت طريقة العمل المعتادة؟

- أعتذر منك، سيدي. إنه مجرد سؤال عابر، أعرف جيدًا ما يجب القيام به.

- سؤال عابر؟ يبدو أنك متأثر بالشاعر نزار قباني! سوف أجعلك ترحل عنده، فلا تعبث معي.

- أعتذر منك، سيدي...

- لدي خرجة خاصة، بدون الحماية المرافقة... استدعِ لي السائق.

خرجت السيارة بسرعة. لقد سئم من كل هذا النسق الإداري الخانق. ويبدو أنّه سيغادر قريبًا هذا المنصب البائس عند أول فرصة متاحة.

- توجّه بنا إلى زاوية الحاج محمود.

- حاضر، سيدي.

كان ذلك المكان الروحاني ملاذه كلما حاصرته هموم الإدارة والبرامج الحكومية. الحاج محمود كان أول من استقبله ورحّب به حين جاء إلى هذه المنطقة الصحراوية المهمّشة. رجل دين وزاهد كبير؛ الجلوس معه أشبه بالسفر بعيدًا عن الواقع. حديثه دواء للأرواح المنهكة.

ابتعدت السيارة عن المدينة تدريجيًّا، ومع كل كيلومتر كانت الكثبان الرملية تغزو الطريق. ومن بعيد، تراءت الزاوية وقد احتضنتها الرمال الذهبية. منطقة معزولة تسكنها الطمأنينة. جعل منها الحاج محمود مزارًا دينيًا، يقصده الناس في مواسم معيّنة للذكر ولقاء الأحبة وتبادل الأخبار.

نزل من السيارة عند المدخل الرئيسي. هنا لا وزراء ولا فاكسات ملعونة. أخيرًا سيجد الراحة من متاعب الإدارة. كان الحاج محمود في استقباله بالأحضان.

- أهلاً صديقي، شرّفتنا بزيارتك. تفضّل من هنا.

- وأنا بك أسعد، صديقي.

منذ قدومه إلى هذه المدينة، كان يلجأ إلى الشيخ كلما شعر بالضيق. الرجل ترك الدنيا وما فيها وتفرغ للعبادة. المكان يمنح طاقة إيمانية وقدرة على الصبر وتحمل المسؤولية، ويجعلك ترى الحياة من زاوية مختلفة.

- بفضل الله استطعنا فتح المزيد من قاعات التدريس وحفظ القرآن، وقريبًا سنستقبل طلبة من دول مجاورة.

- هذا خبر جيد. أعرف أن هذا المكان سيتحوّل إلى منارة علمية كبيرة، وسنقف معكم دومًا.

ارتشف الحاج محمود كوبًا من الشاي، وواصل حديثه:

- يبدو أنك تأقلمت مع الأوضاع هنا. الناس طيبون ومسالمون.

- نعم، أكيد. وجدت هنا كل الخير. مشكلتي الحقيقية مع السلطات المركزية. يستجيبون متأخرين لطلباتي، وزياراتهم المفاجئة لا تنتهي. بعد غد سيصل وزير الصناعة...

- منطقتنا الصحراوية بحاجة لمشاريع تنموية شاملة. الناس سئموا الوعود والشعارات. مطالبهم واضحة: عمل، سكن، ورعاية صحية. الأمراض أنهكتنا، وأقرب مستشفى متخصص يبعد يومين سفر على الأقل.

- أعدك برفع هذه الانشغالات للسلطات العليا. لكنهم دائمًا يعتذرون بحجّة أننا دولة بحجم قارة.

تحوّل اللقاء إلى اجتماع غير معلن لمناقشة أوضاع المنطقة. بدا أنّ صبر الحاج محمود بدأ ينفد هو الآخر.

غادر رجل الدولة المكان عند الغروب. كانت الجلسة جرعة معنوية أعادته قليلاً إلى توازنه قبل تحضيرات الزيارة الرسمية. لوّح الشيخ مودّعًا وهو يراقب الليل يبتلع أشعة الشمس الأخيرة. كانت زيارة خاصة، لكن أثرها سيبقى في هذه المنطقة المنسية، أو كما تُعرف: باقي الوطن.

في طريق العودة، عادت الهواجس من جديد. لا بد من تحضير ملائم لزيارة الوزير. غير أن الطريق لم تكتمل؛ بجوار واحة معزولة، تحوّل الظلام فجأة إلى نهار. أضواء قوية، سيارات دفع رباعي، وشاحنة تسد المنفذ الصحراوي الوحيد المؤدي إلى المدينة.

- ماذا يحدث؟! سأل السائق.

- لا نستطيع العودة للخلف... يبدو أنها عصابة أو قطاع طرق من الدول المجاورة.

توقفت السيارة تدريجيًا، وخرج رجال مسلحون من بين الأضواء. جماعة خارجة عن القانون تسيطر على الحدود، لا تعترف بأي دولة ولا تخضع لأي سلطة رسمية. يرفعون رايات الجهاد، وهوايتهم المفضلة خطف السياح الأوروبيين وطلب الفدية.

الوضع أشبه بضواحي كابول. وفجأة خرج رجل ملتحٍ مدجج بالأسلحة. خطواته ونظراته تدل على أنه الزعيم الوحيد. اقترب من السيارة الحكومية المرتبكة، وبحركة وحشية سحب رجل الدولة من مقعده ورماه أرضًا.

لم يصدق ما جرى. من نعيم الإدارة إلى الحضيض في لحظة. الخوف استولى عليه، شعر أن هذه نهايته. هل يحاول الدفاع عن نفسه؟ لا جدوى. الخيار الوحيد: استغلال الحوار لإنقاذ حياته.

نهض بصعوبة وقال:

- لم أفعل شيئًا. أظن أن هناك خطأ ما.

- نحن نعرف عنك كل شيء منذ قدومك. وأخيرًا وقعت بين أيدينا. نعلم أيضًا بزيارة وزير الصناعة بعد غد. لدينا عيون في كل مكان.

- لكنني موظف فقط، جئت لأخدم هذه المنطقة وسكانها.

- موظف؟! كفاك تلاعبًا بالكلمات. أنت ممثل الحكومة هنا.

ثم التفت الزعيم إلى السائق المرتبك:

- ارحل من هنا أيها الصعلوك. انقل رسالتي إلى أسيادك. حياة هذا الرجل تتوقف على دفع فدية كبيرة. سنصدر بيانًا عبر الإنترنت نعلن فيه المبلغ المطلوب.

غادر السائق المكان مسرعًا، وكأنه عاد للحياة من جديد. أما رجل الدولة، فقد كان يعيش لحظة قاسية: رهينة بائسة بين أيدٍ غليظة، في أعماق الصحراء.

- وأخيرًا وقعت بين أيدينا، قال الزعيم بابتسامة باردة. سنجني من ورائك الكثير من المال.

في اليوم الموعود، حطّت طائرة وزير الصناعة في المطار الصحراوي البائس. استُقبل من طرف رجل دولة جديد أُرسل على عجل. فالحكومة لا تتوقف، مهما كان الثمن.

ارتدت المدينة التائهة أبهى حلة ممكنة. اصطفت الفرق الفلكلورية في مدرج المطار للترحيب بالوزير المنقذ الذي سيضيف قليلاً من «الازدهار» إلى المنطقة المنكوبة. لكن الحقيقة أنّ الناس لم يطلبوا صناعة ولا مصانع... فقط حياة كريمة، فرص عمل، سكن، ورعاية صحية. أما الصناعة، فكانت بالنسبة لهم حلمًا بعيد المنال.

في خبر... كان

جلس في المقهى البائس يقرأ عناوين الصحف بكل لهفة، يبحث عن أي خبر ثقافي، باعتباره كاتبًا ومثقفًا يحرص دوما على معرفة كل ما يحدث في البلد.

إعلان مهم عن ملتقى أدبي كبير في العاصمة... إنها فرصة لعودته إلى الساحة الثقافية، لكنه لم يتلقّ أي دعوة. أصبح مجرد كاتب مهمّش لا يتذكره أحد.

دخل المقهى مثقف آخر، صديقه القاص والروائي الذي كتب عشرات القصص، لكنه ما زال يعيش العزلة بعيدًا عن المركز... هو الآخر يحمل الأحلام نفسها ويعاني الكوابيس ذاتها.

- أهلا صديقي، مرحبًا بك. لم أرك منذ فترة طويلة. هل هو اعتكاف لكتابة رواية جديدة؟

- أبدًا... سئمت الكتابة في هذه المدينة الضائعة بين كثبان الرمال وغابات النخيل. لم يعد لي أي دافع للإبداع، لقد وصلت إلى عتبات الجنون الفكري.

- لا تفقد الأمل، ربما تتغير الأوضاع قريبًا. هناك ملتقى أدبي يتحدثون عنه، قد تصلنا دعوات للحضور.

المقهى خليط إنساني غير متجانس: العاطلون عن العمل، المتقاعدون، وبعض عابري السبيل. في إحدى الزوايا يجلس كاتب من نوع آخر... إنه الكاتب العمومي الوحيد في المدينة الصحراوية «باقي الوطن». ينقل تظلّمات المواطنين إلى الجهات الحكومية... كاتب عمومي في صراع دائم مع الموظف العمومي. صاحب المقهى لا يجد حرجًا في وجوده، فحضوره يزيد الطلبات ويحقق للمقهى مداخيل إضافية.

- لا تتفاءل كثيرًا، لن تصلك أي دعوة. أعرفهم جيدًا... سيرسلون الدعوات إلى أصدقائهم في الرداءة الثقافية وإلى حبيباتهم.

- الوضع الثقافي كله رداءة يا صديقي. يجب أن نطلب من هذا الكاتب العمومي أن يكتب لنا رسالة شاملة إلى أعلى السلطات الحكومية.

في اليوم الموالي، توجه إلى المركز الثقافي الوحيد في المدينة، حيث يلتقي نهاية كل أسبوع ببعض الأصدقاء، يتبادلون الأخبار الثقافية ويساعدون الأقلام الشابة الجديدة التي تجد في النادي الأدبي الدعم والتوجيه.

جلس في ركن معزول من المكتبة يطالع آخر رواية وصلته من صديق. ورغم كثرة الإصدارات الأدبية في السنوات الأخيرة، إلا أن الدراسات النقدية نادرة. لمح فتاة تدخل بخطوات محتشمة... إنها كاتبة شابة تعرف عليها في آخر أمسية أدبية، تكتب بعض القصص لكنها ما زالت في بداية الطريق.

- صباح النور أستاذي الفاضل.

- أهلا بك، مرحبًا.

فتحت حقيبتها وأخرجت كراسة مزركشة بكل لهفة.

- تفضل، هذه آخر قصة قصيرة كتبتها. أرجو أن تعطيني رأيك فيها.

بعد لحظات عدّل من جلسته ونظر إليها باهتمام.

- فعلا نص جميل. أنت في الطريق الصحيح. كلماتك تلامس العقل والقلب.

لم تصدق الفتاة ما سمعته وغادرت المكان بكل فرح وسعادة.

اقترب منه صديق من أعضاء النادي الأدبي، يبدو أنه تابع المشهد منذ بدايته.

- أراك تبالغ كثيرًا في مدح تلك الفتاة. قرأت بعض نصوصها، وما تكتبه غير مقنع، مجرد كلمات مجتمعة لا أكثر.

- من عادتي تشجيع الأقلام الشابة. يجب أن نكون سندًا لهم.

- طبعا، لكن ليس بهذه الطريقة. الأفضل أن تكشف لها أخطاءها وتساعدها على كتابة نصوص أفضل.

- لا تنزعج، لم أمنحها بيتًا ولا سيارة. مجرد كلمات عابرة فيها شيء من المجاملة.

أنت تعرف أن هناك كلمات دمّرت أشخاصًا وأوطانًا. المهم أنك تساهم في تكريس الرداءة بطريقة غير مباشرة.

وفجأة، وصله اتصال هاتفي من زوجته. وقف جانبًا ليستمع بكل تركيز إلى طلباتها. لا داعي للحوار معها، فهو يدرك دوما أن أفضل وسيلة لراحته النفسية هي الاستماع والتنفيذ.

خرج مسرعًا بعدما استأذن من صديقه المشاكس، الذي رغم تدخلاته الكثيرة يعتبر عنصر توازن في النادي الأدبي، ويساهم أحيانًا في إثارة نقاشات مثيرة.

عند مدخل المركز الثقافي، عثر على ظرف بريدي بلون جذاب. وضعه في جيبه وواصل طريقه نحو السوق لشراء ما طلبته زوجته.

في المساء، جلس يراجع بعض النصوص التي كتبها من أجل نشرها لاحقًا في بعض المواقع الأدبية. كان يومًا حافلًا بالأحداث، وأحيانًا تكون مثل هذه الأحداث حافزًا لكتابة نص جديد. لكن أروع النصوص هي تلك المستوحاة من الواقع.

فجأة تذكر الظرف البريدي. نهض مسرعًا نحو معطفه، أخرجه وفتح الرسالة بكل لهفة. هل هي وثيقة إدارية سقطت من صاحبها؟ أم رسالة غرامية؟ بدأ يقرأ النص المكتوب بخط جميل وجذاب... ليكتشف أنها قصة قصيرة رائعة في أسلوبها وحبكتها، من أروع ما قرأ. هل هو كاتب مجهول أم كاتبة كبيرة؟ في آخر النص وجد جملة قصيرة جدًا: «بقلم م.م.»

بعد أيام، توجه إلى المركز الثقافي وجلس في مكانه المعتاد يتأمل الجميع. البحث عن «م.م.» أصبح هاجسه الدائم. لا بد أن يعرف هوية هذا الكاتب أو الكاتبة. لم يكن يتصور أن هذه المدينة الضائعة في أعماق

الصحراء قد تخرج من يقلب موازين الكتابة الأدبية في البلاد. أحيانًا راودته فكرة تبني النص ونشره باسمه، لكنه سرعان ما تراجع. ظهور «م.م.» سيجعله رمزًا غير متوقع للسرقة الأدبية.

وفجأة دخلت الكاتبة المبتدئة بخطوات محتشمة متجهة نحوه. ربما تحمل نصًا جديدًا. إنها فرصة أخرى لإعطائها بعض التوجيهات التي قد تساعدها في تطوير أسلوبها.

- صباح الخير أستاذ.

- أهلا بك. يبدو أنك كتبت نصًا جديدًا.

- لا، أستاذ... لدي خبر مفاجئ وغير متوقع. لقد وصلتني دعوة للمشاركة في ملتقى أدبي كبير بالعاصمة. أخيرًا جاءت الفرصة التي كنت أحلم بها!

غمرته دهشة كبيرة. كل شيء ممكن في هذه البلاد! حلمه في المشاركة في الملتقى الأدبي أصبح «في خبر... كان». فتاة في بداية الطريق مدعوة إلى حدث أدبي كبير، بينما هو أفنى عمره في الكتابة ولم يتذكره أحد. الرداءة على كل الأصعدة، ولا أمل في تغيير الواقع الأدبي.

اقتربت منه الفتاة أكثر وأخرجت من حقيبتها ورقة مميزة وملونة، سلمتها له بفرح.

- إنها الرسالة الرسمية التي وصلتني.

قرأ الدعوة بعناية، محاولًا التظاهر بسعادته. لكن في أعماقه كان هناك دهشة ونكسة خفية. وقبل أن يعيد لها الورقة، قرأ الاسم واللقب المكتوبين في أول المراسلة الرسمية:

«إلى الآنسة القاصة منال مرابط».

غادرت الفتاة المكان والسعادة تغمرها، فيما جلس صاحبنا بكل هدوء يراجع كل النكبات التي مرت عليه... وآخرها اكتشاف هوية «م.م.»

الفهرس

المنزل رقم 626.......................................7

عائد إلى الديار 13

سفير تحت العادة 19

قاتل الخوف 23

لجنة خاصة 29

حق مشروع 33

خبايا المدينة.......................................37

الاختطاف..41

التوصيةالذهبية.....................................45

الدور الثاني..49

المناضل المنسي...................................53

الهروب الكبير.....................................57

نحتفظ بحق الرد...................................63

رهينة في الصحراء...............................69

في خبر..كان......................................75